ثمن النسخة الواحدة خمسة غروش صاغ وفيها ١٣ رسماً

بولس وفرجيني

وهي الحلقة الاولى من (مشروع) مجلة الجامعة

ومداره على نقل

اشهر موءلفات الافرنج

الى اللغة العربية تلخيصاً

بقلم

فرح انطون

منشيء مجلة « الجامعة »



برناردين موءلف (بولس وفرجيني)



بولس وفرجيني

الاسكندرية في ١٠ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٢

حوادث هذه الرواية حقيقية لا خيالية كما تجد في الجزء العاشر من الجامعة

مشروع الجامعة الجديد

في اللغات الاوربية مؤلفات وضعها حكماؤهم وفلاسفتهم وعلماؤهم لانارة الاذهان وتثقيف العقول واصلاح الاخلاق وهي اشهر مؤلفاتهم . ولقد كان لهذه المؤلفات النفيسة التاثير العظيم في تلك الامم لانها هي التي كوّنت اخلاقها وصاغت نفوسها . فنقلها الى اللغة العربية امر واجب لنشر ما فيها من (الجمال والخير والحق) لا سيما وان موضوعها غير مخصوص بامم الافرنج بل هو فلسفي علمي ادبي يصح اطلاقه على جميع بني الانسان

وقد شرعت (الجامعة) منذ هذا الشهر في نقل بعض هذه المؤلفات النفيسة التي تحتاج لغتنا اليها . فهي تُصدر في كل شهر كتاباً منها وبذلك تستطيع ان تنقل الى اللغة العربية في كل عام ١٠ كتب نفيسة او ١٢ كتاباً كان يجب ان تكون قد نقلت اليها منذ ازمان . وقد جعلت ابتداء هذا المشروع رواية فلسفية ادبية طبيعية عنوانها « بولس وفرجيني » وهي من تاليف الفيلسوف الادبي الشهير برناردين دي سان بيير . وهي افضل كتاب ادبي كُتب في عصر المؤلف . وقد قال شارحو كتبه ان هذه الرواية وضعت برناردين في درجة هوميروس وفرجيل وتاسيت فصار بها خالداً مثلهم . ولما نُشرت هذه الرواية في باريز (عام ١٧٨٩ قام لها عالم الادب وقعد وما قرأها احد من الجنسين الا اذرف لها دموعاً سخينة ولم يولد غلام في ذلك العام الا وسمي « بولس » ولا ابنة الا وسميت « فرجيني » وكان نابوليون الاول كلما لقي مؤلفها يسأله : متى تكتب لنا يامسيو برناردين كتاباً كبولس وفرجيني او كالكوخ الهندي . اما ناشروا الكتب فانهم زوروا طبعها ٣٠٠ مرة اي انهم طبعوها ٣٠٠ مرة من غير اذن المولف ليستطيعوا اجابة الجمهور الذي كان يطلبها من كل صوب . فعسى ان يكون لها في اللغة العربية شيء من الاقبال الذي كان لها في لغتها لاننا بذلنا الجهد لجعلها — كتابةً وطبعاً وورقاً وتصويراً — مساوية للنسخة الاصلية

هذه هي الحلقة الاولى من مشروع الجامعة وقد جعلناها هدية للامهات والعذارى في الشرق فنرجو ان يقبلنها ويستفدن منها . وفي الشهر الآتي تصدر الحلقة الثانية لمؤلف آخر طبقت شهرته الخافقين . وهكذا على التتابع . ولا ريب عندنا في ان قراء اللغة العربية سيرتاحون الى هذا المشروع وينشطونه تنشيطاً يمكّن الجامعة من توسيعه في المستقبل توسيعاً يتجاوز كل حد كما ذكرت ذلك في مقدمة طويلة في صدر الجزء التاسع الذي صدر في هذا الشهر وينسيها ما تعانيه في سبيله . وعلى الله الاتكال في كل حال

بولس وفرجيني

وهي اشهر الروايات الادبية واشرفها

هدية من (الجامعة) الى كل ام وكل زوجة وكل عذراء في الشرق. ليرين فيها اسمى صورة للكمال والادب والمعيشة البرّية الطاهرة ويسمعن منها اشجى اصوات الفضيلة

١

قصة الشيخ

في الشاطىء الشرقي من «جزيرة دي فرنس» مدينة تُدعى «بور لويس» اي ثغر لويس وهي قائمة على سفح جبل يُدعى «المورن» ووراءه غابة واسعة تمتد الى اطراف الجزيرة وكان بين المدينة والجبل ارض فسيحة منبسطة بين الآكام والصخور يدلّ ظاهرها على انها كانت منذ مدة عامرة مزروعة . وكان يلذ لي الصعود من المدينة الى هذه الارض لاتمتع فيها بالهدوء السائد فيها واسمع منها تكسر امواج البحر على شاطىء الجزيرة وحفيف اشجار الغابة من وراء الجبل. وكان في وسط هذه الارض آثار كوخين بُني احدهما بجانب الآخر . ففي ذات يوم كنت جالساً بجانب هذين الكوخين امتع الطرف بمناظر الافق



الشيخ

البعيد واتامل في ما حولي واذا بشيخ قد مرّ بي وهو لابس ملابس الوطنيين وهي مؤلفة من رداء قصير و(كلسون) وفي يده عصا يتوكأ عليها . وكان شعره ابيض وهو مسترسل على كتفيه وفي وجهه دلائل المروّة والبساطة والصلاح . فلما دنا مني حييته باحترام فردّ

لي التحية وتامل فيَّ قليلاً ثم دنا وجلس بجانبي. فلما رأيته قد آنس بي خاطبته بقولي «هل تعرف ياعمّ لمن كان هذان الكوخان» فنظر الشيخ اليَّ وقال «كان هذان الكوخان يا بنيَّ لعائلتين فقيرتين عاشتا فيهما بهناء منذ عشرين عاماً . ولهما قصة موثرة ولكن مَنْ من الناس يهتم الآن باخبار افاضل البشر الذين يعيشون بهدوء وسلام في بعض زوايا البلاد . ان الناس لا يهتمون الا لتاريخ الملوك والعظماء الذي قلما يجدي نفعاً» فقلت حينئذ للشيخ : «بل قصَّ عليَّ ياعماه قصة هاتين العائلتين اذا كنتَ في سعة من الوقت . فانني مصغٍ اليك بكل جوانحي . واعلم ان الانسان مهما بلغ منه الفساد وسوء الحال فانه يبقى ميالاً لاستماع الكلام عن السعادة التي تنشأ عن الفضيلة والمعيشة في الطبيعة»

فامرَّ الشيخ حينئذ يده على جبينه كانه يجمع تذكاراته ثم اخذ يقصّ عليَّ القصة التالية

٢

التجاء امرأتين الى الطبيعة فرارًا من ظلم الناس

في سنة ١٧٢٦ قدم الى هذه الجزيرة شاب من نورمنديا يُدعى المسيو دي لاتور . وسبب قدومه انه طلب الرزق في فرنسا فلم يجد اليه سبيلاً فيها فانصرف عنها الى مستعمراتها . وكانت معه فتاة يحبها حباً شديداً وقد اقترن بها في السرّ ومن غير دوطة لان اهلها كانوا من النبلاء وقد عارضوا في اقترانها برجل لم يكن من طبقتها . ولما جاء دي لاتور بزوجته الى هذه الجزيرة تركها في هذه المدينة (بور لويس) ثم قصد مدغسكر ليبتاع منها بضعة من الزنوج ويعود بهم الى هنا لفلاحة الارض وزراعتها . وكان سفره الى مدغسكر في الشتاء فاصيب فيها بالحمى التي يسمونها الحمى الطاعونية وهي تدوم هنالك نصف سنة وتوفي بها . فاصبحت زوجته منذ ذلك الحين ارملة وكانت فوق ذلك حاملاً ولم تكن تملك غير زنجية تتخذها لحوائجها

ولكن مدام دي لا تور لم يضعف عزمها لهذه المصيبة التي نزلت بها . فعزمت ان تنفرد مع زنجيتها في قطعة ارض تفلحاها وتزرعاها وتعيشا فيها من نتاجها . ولما عزمت هذا العزم تركت الاراضي الخصيبة في السهول وقصدت هذا الجبل. ذلك لان النفوس الحساسة المتالمة تطلب الانفراد دائماً لتخفي فيه احساسها والمها . ولكن العناية الالهية التي لا تتخلى عن مساعدتنا اذا لم نطلب غير الامور الضرورية لنا لم تلبث ان منحت مدام دي لا تور نعمة لا ينالها الانسان بالغنى والجاه : واريد بذلك صديقة فاضلة

فقد كان في هذا المكان حين قدوم مدام دي لاتور اليه سيدة كريمة حساسة تُدعى مرغريت . وكانت هذه السيدة من عائلة من مقاطعة بريتانيا وقد خدعها احد شبان النبلاء فوعدها بان يقترن بها ثم اخلف وعده وهجرها دون ان يهتم لها ولا للطفل الذي اصبحت حاملاً به . فلما وقعت هذه الفتاة التعيسة في هذه المصيبة الهائلة هجرت قريتها حفظاً لكرامة اهلها وسارت تقصد احدى المستعمرات لتخفي عارها فيها بعيدة عن القرية التي اضاعت بها انفس « دوطة » للفتاة الفقيرة اعني طيب الصيت وحسن الاحدوثة . ولما وصلت مرغريت الى هذه الجزيرة ابتاعت منها زنجياً كبير السن ببعض دراهم كانت معها ثم انفردت في هذا الجبل واقامت على فلاحة الارض وزراعتها

ولما قدمت مدام دي لاتور الى هذه الناحية وجدت فيها مرغريت وهي ترضع طفلاً لها . فسرَّت مدام دي لاتور بمصادفتها في هذه الجهات الموحشة رفيقة تؤنسها خصوصاً لان قصة الفتاتين كانت تكاد تكون واحدة . ولما قصت مدام دي لاتور على مرغريت قصتها تاثرت هذه وبكت . ثم قالت لها : « اما انا فقد كنت مستحقة تعاستي ايتها السيدة لانني اخطات . واما انتِ فانكِ كنتِ حكيمة عاقلة ومع ذلك فقد صرتِ تعيسة » ثم قدمت لها مرغريت كوخها وهي تبكي اي اقترحت عليها مساكنتها فيه . فقبلت مدام دي لا تور وسكنت معها

وكنتُ قد عرفت مرغريت قبل قدوم مدام دي لا تور لاني جارها وان كنت اسكن في الغابة وراء هذا الجبل . ذلك لان البشر في الخلاء يكونون جيران وان كانت الاحراش والجبال تفصلهم بعضهم عن بعض . والضيافة تُعتبر عندهم واجباً مفروضاً . اما في المدن فربما عاش رجلان في شارع واحد او في منزل واحد دون ان يعرف احدهما الآخر

فلما دريت بقدوم مدام دي لاتور قصدتُ مرغريت لاسالها اذا كانت تحتاج اليَّ . فشاهدت عندها الرفيقة الجديدة وكانت على وشك الوضع . فقلت لهاتين السيدتين انه من الواجب لحفظ صحة الطفلين بناء كوخ آخر وكان غرضي من ذلك ايضاً اقتسام الارض لئلا ياتي احد ويشاركها فيها . فعهدتا اليَّ هذا الامر . فقسمتُ هذه الارض قسمين . قسم جعلتُ اوله من تلك الصخور العالية التي يكسوها الضباب ومنها يجري نبع صافٍ غزير ونهايته هذا الكوخ وقسم جعلت اوله هذا الكوخ ونهايته السهل المنبسط تحته . وكان القسم الاول علوياً والقسم الثاني سفلياً . ثم انني اقترعت على هذين القسمين بين السيدتين فكان القسم العلوي من نصيب مدام دي لاتور والقسم السفلي من نصيب مرغريت .

فسرت كل واحدة منهما بنصيبها . وبعد ذلك شرعتُ في بناء الكوخ الجديد . وكان كوخ مرغريت مبنياً في آخر القسم السفلي فجعلت كوخ مدام دي لا تور في آخر القسم العلوي ليكون الواحد بجانب الثاني . وقد ذهبت بنفسي الى الحرش والى شاطىء البحر لاجلب منهما مواد البناء للكوخين . وها قد مرَّ على ذلك اليوم عشرون عاماً ومع ذلك فان آثار الكوخين لا تزال ظاهرة للعيان . فكأنَّ طوارق الزمان التي تمحو آثار الممالك العظمى تحترم الآثار التي تقيمها الصداقة والصلاح في احضان الطبيعة

ولم أكد افرغ من بناء الكوخ الثاني حتى وضعتْ مدام دي لا تور طفلة . وبما انني كنت عراباً لابن مرغريت الذي كان يُدعى « بولس » فقد سالتني مدام دي لا تور ان اكون عراباً لابنتها ايضاً . وعهدتْ الى صديقتها مرغريت ان تسمي الطفلة . فسمتها مرغريت « فرجيني » تفاؤلاً بانها ستكون في المستقبل سيدة فاضلة ينطبق فيها الاسم على المسمى . وقد قالت حين تسميتها اياها « انها ستكون فاضلة وسعيدة معاً . لانني لم اعرف التعاسة الا منذ خرجت عن طريق الفضيلة »

وقد تقدم في ما مرَّ انه كان لمرغريت زنجي ولرفيقتها زنجية . فعند ولادة « فرجيني » اقترن هذان الزنجيان . وكانا شديدي الحب والاخلاص لسيدتيهما . وكان الرجل يدعى « دومينيك » وقد اخذ على نفسه زراعة الحقلين حقل مرغريت وحقل رفيقتها وغرس الاشجار فيهما . اما زوجته الزنجية فانها كانت تهتم بداخل الكوخين كاعداد الطعام وترتيب الشؤون وتربية بعض الدجاج وحمل ما فضل عن المنزلين من الاثمار والحبوب والبيض الى المدينة لبيعها فيها . وكان في المنزلين فوق ذلك عنزتان لتربيتهما مع الطفلين رغبة في لبنهما وكلب كبير الجثة ينام في الخارج ليحرس المكان تحت جنح الظلام

اما مرغريت وصديقتها مدام دي لاتور فقد كانتا تصرفان نهارهما في غزل القطن . وكانت حاجاتهما قليلة حتى انهما كانتا تمشيان حافيتين ولا تلبسان حذاء الا حين ذهابهما في يوم الاحد الى تلك الكنيسة القائمة هنالك . اما المدينة فلم تكونا تنزلان اليها الا قليلاً لان اهلها كانوا يتهكمون عليهما للبسهما ملابس مصنوعة من نسيج ثخين وارد من بنغال وهو ما يلبسه العبيد في هذه الجزيرة . ولذلك كانتا تعودان بسرعة من المدينة كلما ذهبتا اليها وتنسيان في هذا المكان المنفرد الذي كانتا تجدان فيه الحرية والنظافة والخيرات التي اخرجتاها من الارض بجدهما وتعبهما ما كانتا تلاقيانه في المدينة من خشونة الناس وتهكمهم وكانت حاجاتهما متشابهة وحالتهما متماثلة ولذلك كان كل شيء لديهما مشتركاً بينهما .



العائلتان مجتمعتان

وكان لهما ارادة واحدة ومصلحة واحدة ومائدة واحدة · وكانت احداهما لا تنادي الاخرى الا بهذا النداء الحلو: « يا اختي » او « يا صديقتي » · وكانت معيشتهما عيدًا دائمًا في هذا الاخاء وهذه الصداقة · واذا اتقدت يومًا في نفسيهما نار اقوى من نار الصداقة فقد كانت مبادئهما الدينية النقية واخلاقهما الطاهرة الشريفة تصرف تلك النار الى العالم الثاني · كلهيب يتطاير الى السماء منفصلاً عن الارض لنفاد المادة التي كان يتولد منها

وكانت صداقتهما تزداد من نظرهما الى طفليهما · وكانتا تتسليان بوضع الطفلين في الماء معًا حين غسل جسديهما فكانا يلعبان فيه ويضحكان · وكثيرًا ما كانتا تنيمانهما في سرير واحد فيتعانقان ويتضامان · وكانت الواحدة ترضع طفل الاخرى وهي تقول « سيكون لكل واحدة منا ولدان ولكل ولد منهما امان » واحيانًا بينما كانتا مكبتين على سريريهما ترضعانهما كانتا تمزحان وتتحادثان بعقد الزواج بينهما حين بلوغهما سن الشباب · غير انهما كانتا كلما افتكرتا في ذلك انقلب هزلهما جدًا وملأ الحزن نفسيهما · ذلك لان الواحدة كانت ترى انها لم تقع في المصائب الا لاهمالها عقد الزواج والاخرى لانها خضعت لناموسه · الاولى رامت الصعود الى طبقة فوق طبقتها والثانية نزلت من طبقتها الى طبقة ادنى منها · ولكنهما كانتا تتعزيان عن ذلك بافتكارهما ان ولديهما سيكونان اهنأ بالاً منهما فيذوقان لذة السعادة والمساواة في هذه الارض البعيدة عن اوهام اوربا واخلاقها الفاسدة

٣

بولس وفرجيني في الصغر

وفي الحقيقة ان ما كان بين بولس وفرجيني من الالفة حتى في صغرهما امر يوجب الدهشة . فانه اذا بكى بولس او شكا من امر فقد كان كافياً لاسكاته ان تريه امه فرجيني وتدنيه منها . فحينئذ يبتسم بولس و يسكت كانه لم يبكِ ولم يشكُ من شيء . واذا تألمت فرجيني من طارئ، صرخ بولس في الحال منذرًا بالمها . اما هي فقد كانت تكتم ألمها عند صراخه لئلا تزعجه . وكنت كلما اتيتُ الى هنا وجدتهما واقفين عاريي الجسم كعادة الاولاد في هذه البلاد وهما يمشيان باقدام مرتجفة لعدم مقدرتهما على المشي في اول عمرهما . وكانا يمشيان وهما آخذان بعضهما بايدي بعض كانهما شقيقان لا ينفصلان . واذا جنَّ الليل لم يقدر احد على الفصل بينهما ايضاً فينامان في فراش واحد متعانقين الوجه في الوجه والخد على الخد

وحين مقدرتهما على النطق والكلام كانت اول كلمة نطقا بها « اختي » و « اخي » . فان سن الصبا يعرف عواطف ارقّ من هذه الكلمة ولكنه لا يعرف كلاماً احلى منها . ولما نشأا قليلاً زادت الفتهما واشتد تعلقهما بعضهما ببعض لان تربيتهما المختلفة كانت تسوق صداقتهما الى حاجاتهما الغريزية المتبادلة . اما فرجيني فانها كانت تساعد الزنجية في كل ما له علاقة بتدبير المنزل واعداد الطعام . واما بولس فانه كان يساعد الزنجي في



تحت مظلة واحدة

زراعة الارض ويصحبه الى الحرش لقطع الحطب وفي يده فاس صغيرة . وكان اذا وجد في طريقه في الحرش زهرة جميلة او ثمرة جيدة او عش عصفور فقد كان يصعد اليه ولو كان في اعلى شجرة و يعود به الى رفيقته المحبوبة

وكل من عثر على احدهما في مكان فانه كان متيقناً انه يجد الآخر غير بعيد عنه ٠ وفي ذات يوم كنت نازلاً من احدى هذه القمم التي امامنا فشاهدتُ فرجيني في الحديقة تركض الى المنزل تحت المطر وقد رفعت « فسطانها » على راسها خوفاً من البلل. فقصدتها لمساعدتها على الوصول الى البيت ولكني لما دنوت منها رايت انها لم تكن وحدها بل كان بولس معها تحت الفسطان وهما يسيران ضاحكين مسرورين من هذا الاختراع الذي كان يقيهما المطر ويضمهما تحت مظلة واحدة

وعلى ذلك فكل عنايتهما كانت مصروفة الى امرين ٠ الاول مساعدة بعضهما بعضاً والثاني ارضاء بعضهما بعضاً ٠ وكانا جاهلين اي انهما لم يكونا يعرفان القراءة والكتابة ولا يهتمان بما حدث قبلهما في الازمنة الماضية ٠ ذلك ان اهتمامهما كان مقصورًا على الارض التي كانا يعيشان عليها وكانا يحسبان انها الدنيا كلها ٠ وكانا لا يعرفان السرقة لان كل شيء كان مشتركاً بينهما ومباحاً لهما ٠ ولا الشراهة لان طعامهما كان بسيطاً وهما ياخذان منه ما ارادا ٠ ولا الكذب اذ لم يكن عليهما ضغط يضطرهما الى ستر امور تخالف ما يُطلب منهما القيام به ٠ ولم تُخفهما امّاهما بتعليمهما ان الله يعاقب الاولاد الذين يعقون اهلهم عقاباً هائلاً ٠ ولا علمتاهما من الدين الا كل ما يحببه الى النفوس ويجعلها تُسرّ به وترتاح اليه بدلاً من ان تخاف منه ٠ ولذلك فان بولس وفرجيني اذا لم يذهبا الى الكنيسة ويصليان فيها صلوات طويلة فانهما في كل مكان يقيمان فيه : في البيت او في الحقل او في الحرش كانا يرفعان عيونهما وايديهما الى السماء بقلوب ملئها الحب والشكر للامين الفاضلتين اللتين تربيهما

٤

وصفها في سن الفتوة

وهكذا صرف بولس وفرجيني زمن صباهما فكان هذا الزمن منهما بمثابة شفق يبشرهما بطلوع شمس السعادة عليهما في مستقبل العمر

وكانت بنية الولدين تنمو وتشتدّ بغذاء سليم غزير ونفسهما تزداد اشراقاً بتربية لطيفة كانت تطبع على سحنتهما دلائل الطهارة والارتياح الباطني ٠ ولما بلغت فرجيني السنة الثانية عشرة كانت قامتها قد امتشقت وشعرها الاشقر الطويل قد كلل وجهها الجميل وعيناها الزرقاوان وشفتاها المرجانيتان صارت تسطع في وجهها سطعاناً يسحر الالباب ٠ وكانت اذا

تكلمت ابرقت عيناها وابتسمتا ابتساماً مسكرًا واذا سكتت ارتفعتا الى السماء ارتفاعاً طبيعياً لا صناعة فيه فيكون لها حينئذ منظر شديد التاثير يمازجه شيء من التامل والحزن . واما بولس فقد اخذت تبدو عليه علامات الرجولية من خلال من الصبا . فان قامته صارت اطول من قامة فرجيني ولونه صار اسمر من لونها وانفه معقوفاً اكثر من انفها . وكانت عيناه سوداوين كبيرتين ولهما منظر يدل على الكبرياء لو لم يكن حولها اهداب كالاشفار تلطف قوتها . وكان بولس في حركة دائمة في النهار ولكنه كان اذا رأى فرجيني قادمة نحوه ترك كل عمل وحركة وجلس بجانبها . وكثيرًا ما جلسا ياكلان معاً وهما ساكتان لا ينطقان ببنت شفة . الا ان اعينهما كانت تلتقي كثيرًا فكانت شفاههما تبتسم لالتقائها . وبذلك كانا يشبهان اولادًا من اولاد السماء الذين يتخاطبون بالروح لان السنتهم لا تعرف كلاماً يعبر عما في نفوسهم من عواطف الحب والصداقة

٥

قساوة عمة

وكانت فرجيني كلما تقدمت من الشباب وزادت محاسنها اشراقاً ازداد بال امها اشتغالاً بشانها . ولذلك كانت تقول لي : « ماذا يحل بفرجيني اذا مت وهي لا تملك شيئاً » وفي ذات يوم عزمت على ان تكتب بهذا الشان لعمتها الغنية في اوربا . وقد قهرت نفسها على ذلك لا من اجلها بل من اجل ابنتها لانها كانت تستهون كل صعب في سبيلها . فتناولت قلماً وكتبت اليها تشكو حالها وتخبرها بموت زوجها وبولادة ابنة لها . فلم يردها جواب منها . فعادت مدام دي لاتور مع انفتها وابائها وكررت الكتابة الى تلك العمة القاسية رغبة في تدارك مستقبل ابنتها . فمرت عليها بضع سنوات دون ان تاخذ جواباً على كتابها . ولكنها في عام ١٧٣٨ اي بعد انقضاء ثلاث سنوات على قدوم المسيو دي لابوردوناي حاكماً لهذه الجزيرة بلغها ان هذا الحاكم يسال عنها ليدفع اليها كتاباً من عمتها . فطارت مدام دي لاتور اليه واخذت ذلك الكتاب منه . ولما قرأته وجدت ان عمتها تقول لها فيه انها تستحق التعاسة التي وقعت فيها لانها رضيت بالاقتران برجل دنيء الاصل . وان في الشهوات نفسها عقاباً لاصحابها . وان موت زوجها قبل الاوان قصاص عادل من الله . وانها احسنت في التجائها الى المستعمرات فرارًا من الصاق وصمة العار باسرتها في فرنسا . ثم هي تقول لها انها في بلاد غنية لا يفتقر فيها الا الكسالى . وبعد كتابة هذا

الكتاب علقت عليه حاشية خلاصتها انها عادت فاوصت بها المسيو دي لابوردوناي خيرًا
اما مدام دي لا تور فانها بعد وقوفها على هذا الكتاب وقعت في اليأس خصوصًا حينما قال لها الحاكم انه يجب عليها ان لا تزعج بكتبها عمتها الكريمة . فعادت هذه الام الى منزلها في الجبل والقت الكتاب على المائدة امام رفيقتها قائلة « هذه هي نتيجة اصطباري احدى عشرة سنة »

ولما درت بذلك مرغريت وفرجيني و بولس حزنوا لحزن مدام دي لا تور وصارت فرجيني تقبّل امها تخفيفًا لحزنها واخذت صديقتها مرغريت تقول لها « لسنا في حاجة الى اهلك فان الله لا يتركنا وهو وحده ابونا فتشجعي ياعزيزتي ولا تحزني » . اما بولس فانه كان يرفس الارض بقدميه و يتهدد بقبضتيه دون ان يعرف على ايّ بشر يجب ان يصب غضبه . فاخذت حينئذ مدام دي لا تور بولس وابنتها فرجيني بين ذراعيها وقبلتهما وهي تقول « انتما سبب حزني وفيكما اجد كل هنائي » فلم يفهم بولس وفرجيني هذا الكلام ولكنهما ابتهجا اشد ابتهاج حينما شاهدا مدام دي لاتور تمسح دموعها . وعلى ذلك كان هذا الاضطراب الوقتي عبارة عن زوبعة خفيفة في احد ايام الصيف الهادئة

٦

ما جزاء الاحسان الا الاحسان

وكان ميل بولس وفرجيني للخير ينمو في وسط تلك الطبيعة الهادئة نموًا مستمرًا . ففي يوم احد ذهبت مدام دي لاتور ومرغريت الى الكنيسة و بقيت فرجيني في البيت لاعداد الطعام . فبينما كانت مشتغلة بذلك واذا بزنجية في حالة يرثى لها من الفقر وسوء الحال قد وقفت امام الكوخ وهي تبكي من الجوع وصارت تقول « رفقًا بي ايتها الفتاة اللطيفة » ثم اخبرتها بان سيدها قد اساء اليها وعذبها فاضطرت الى الفرار من بيته ولذلك بعث بطاردها في الجبال لاصطيادها . اما هي فانها عزمت على طلب الموت ولكنها قالت في نفسها قبل ذلك يجب ان ازور هولاء البيض اولاً لعلهم يساعدونني ويدفعون الموت عني . فرقت لها فرجيني خصوصًا حينما شاهدت ما كان في جسمها من الجروح الناشئة على اثر السياط وقدمت لها كل ما اعدته للمنزل من الطعام في ذلك الصباح . فاكبت الزنجية على الطعام فلم تترك منه شيئًا . اما فرجيني فانها قالت لها : « هل ترومين ان اذهب معك لاطلب لك العفو من سيدك ياعمتي » فاجابت الزنجية : انني اتبعك حيثما ذهبت ياملاك السماء .

فنادت فرجيني حينئذ بولس وسالته ان يرافقها الى منزل سيد الزنجية ليطلبا لها العفو منه٠ فذهب بولس معها والزنجية تتبعهما ٠ وكان منزل سيد الزنجية قائمًا وراء الجبل فاجتازوا اليه الاكام والاحراش بعناء شديد ٠ ولما وصلوا اليه رأوا الرجل يتنزه في حديقته وفي فمه غليونه ٠ فدنت منه فرجيني باقدام مرتجفة وطلبت منه « ان يعفو عن خادمته اكرامًا لله» اما الرجل فانه لم يعبأ في بدء الامر بتلك الفتاة وذلك الفتى اللابسين ملابس تدل على فقرهما٠ ولكنه حينما وقع نظره على عيني فرجيني الساحرتين ورأى قوامها الاهيف ووجهها المشرق بنور الجمال وسمع صوتها اللطيف الذي كان يرتجف من الانفعال كسائر جسمها رفع الغليون من فمه وقال «والله اني اعفو عنها ولكن لا اكرامًا لله بل اكرامًا لكِ » فاومأت حينئذ فرجيني الى الزنجية ان تتقدم ثم فرّت تركض نحو العرش و بولس يتبعها

و بعد ذلك اخذا يتسلقان الجبل للعودة الى المنزل٠ وكان قد انتصف النهار وقد سارا من غير طعام مسافة ١٥ ميلاً ٠ فقال بولس لها : نحن من غير طعام منذ الصباح فهلمي نعود الى منزل سيد الزنجية لنتغدى فيه ٠ فاجابت فرجيني : لا لا فانني خفت من ذلك الرجل خوفًا شديدًا ٠ واذكر يابولس قول امي : ان خبز الرجل الشرير يملاء الفم حجارة وترابًا ٠ فقال بولس : فماذا نصنع اذًا فانني لا اجد في هذا المكان شجرة مثمرة لتبردي بثمرها حرارتك وتبلي ريقك ٠ فقالت فرجيني : ان الله لا يتخلى عنا وكما انه يسمع اصوات العصافير الصغيرة ويُنيلها مرادها فانه يسمع ايضًا صوتنا

ولم تاتِ فرجيني على هذا الكلام حتى سمعت خرير ماء فصاحت باخيها : لقد وصلنا الى نبع٠ ثم اسرعا الى صخرة كانت الماء تنبجس منها فشربا من مائها الصافي واكلا من النباتات التي كانت نامية في جوانبها

ثم اخذا يفتشان عن طعام افضل من هذا الطعام فوجدت فرجيني بين اشجار الحرش نخلة صغيرة ٠ وكان بولس يعلم ان راس النخلة يتضمن دائمًا كتلة من الالياف التي تصلح للاكل وهم يسمونها « ملفوفة او كرنبًا » لشبهها به٠ فاخذ بولس يدبر طريقة لكسر تلك النخلة توصلاً « للملفوفة » وكان جذع النخلة صلبًا لا تعمل فيه الفأس ولم يكن مع بولس شيء جارح حتى ولا سكين ٠ فعمد الى كسر النخلة من طريق اخرى وذلك انه رام احراق الجذع ليتمكن من كسره ٠ ولم يكن لديه نار لاحراقه فاخذ يوقد نارًا بالطريقة الطبيعية التي يجري عليها اهل هذه البلاد ٠ وذلك انه جاء بغصن يابس ثم تناول حجرًا محددًا وثقب الغصن به ٠ وبعد ذلك جاء بغصن يابس آخر ولكن من غير نوع الغصن

الاول و برى طرفه بالحجر المحدد ايضاً · ثم ادخل طرف الغصن المبري في الثقب وصار يديره فيه بسرعة كما يُدار حجر الرحى · فلم تمر على ذلك فترة من الزمن حتى حمي الغصنان ثم تطاير منهما الشرر دلالة على اضطرام النار · فاخذ بولس هذه النار واضرم جزع النخلة بها · ولما احرقت النار الجذع هوت النخلة الى الارض · فاخذ بولس « الملفوفة » التي في راسها وصار يأكل منها مع رفيقته ثم شويا بعضها واكلاه مشوياً وهما في غبطة وسرور خصوصاً لتذكرهما ما صنعاه من الجميل مع الزنجية

ولكنهما بعد تناول الطعام اشتد قلقهما لغيابهما عن البيت وابطائهما في ذلك لعلمهما مبلغ اشتغال بال اهلهما لهذا الامر · ولذلك عزما على الاسراع الى الكوخ · غير انهما كانا قد ضلاّ الطريق · فقالت فرجيني « ان منزلنا من جهة الشمس اذا كانت في وسط النهار فيجب علينا ان نجتاز الجبل الذي امامنا للوصول اليه » فاخذا يسيران لصعود الجبل · ولم يتقدما قليلاً حتى اعترضهما في طريقهما نبع يتالف من مائه جدول يقطع الطريق · فخافت فرجيني من خوض الماء للمرور · فاخذها عند ذلك بولس على ظهره ثم سار في الماء



بولس مع فرجيني في الحرش يقطعان الجدول

وهو يقول « لا تخافي فانني اشعر بانني في غاية القوة حينما اكون معك · ولو لم يجبك الرجل الى العفو عن الزنجية لكنت ضربته » فصاحت فرجيني « هل حدثتك نفسك بمخاصمة رجل ضخم وشرير كذلك الرجل · يا لله ما أصعب صنع الخير في هذه الحياة وحقاً انه ليس فيها من امر سهل غير صنع الشر »

ثم اقبل المساء والولدان يسيران على غير هدى بين تلك الجبال والاحراش · ولما

اوشكت الشمس ان تغرب خافت فرجيني وضاق بولس ذرعاً فصار يروح ويجيء على غير هدى واخذت فرجيني تبكي وتقول « لقد اخطات لقد اخطات فانه يجب على الابنة ان تستشير امها في كل شيء حتى في صنع الخير » اما بولس فانه صعد الى شجرة ليرى ما كان امامه ووراءه فلم يرَ الا رؤوس الاشجار البعيدة . فنزل عن الشجرة وصعد الى اكمة ثم اخذ يصيح : « الينا الينا تعالوا وساعدوا فرجيني » فلم يجبه غير رجع الصدى بترديده اسم فرجيني . ولما سُدت دون الولدين كل الابواب التفتت فرجيني الى بولس وقالت له « فلنصلِّ يا اخي فان الله يرفق بنا » فجثا الولدان على الارض بين الاعشاب والاشجار واخذا في الصلاة . وحينئذ سُمع صوت كلب بعيد فصاحت فرجيني « اظن هذا الصوت صوت كلبنا « فيدل » فانني اعرفه ولعلنا صرنا على مقربة من الكوخ » فاجاب بولس « كلا ولكنه على الارجح صوت احد كلاب الصيادين الذين يكمنون الايل مساء في هذه الجهات »

وبعد حين قرب صوت الكلب فالتفت بولس وفرجيني فابصرا عبدهما دومنيك يركض نحوهما والكلب « فيدل » امامه . فطار الولدان من الفرح واخذا يبكيان . اما العبد فانه تنفس الصعداء حين رؤيتهما وقال « ياسيديَّ لقد ذابت نفس والدتيكما خوفاً عليكما » ثم قصَّ عليهما الطريقة التي عرف بها مكانهما ومرجع الفضل فيها للكلب « فيدل » الذي لما شممه ملابسهما القديمة سار في اثرهما يطلبهما مهتدياً بحاسة الشم وعارفاً بها الطريق التي سلكاها في الذهاب والاياب (١)

وكان قد هبط الظلام . فاراد بولس وفرجيني السير فوجدا انهما في غاية التعب لا يقدران على نقل قدم . ولكن من حسن الحظ ان بعضاً من الزنوج مروا في تلك الساعة من هنالك . فدنا زعيمهم وقال : لا تخافوا ايها البيض الصغار فاننا نروم مساعدتكم لاننا رايناكم في الصباح سائرين للشفاعة بزنجية من ابناء جنسنا . فهلموا نحملكم ونردكم الى منزلكم مكافاة لكم »

وحينئذ دنا اربعة من العبيد الاشداء فصنعوا محملاً قوياً وحملوا عليه بولس وفرجيني . فصعدت فرجيني الى المحمل ضاحكة والوت عنقها على كتف اخيها من التعب وهي تقول « ان

---

(١) وقد روى المؤلف ان الكاتب دي كريفكور ذكر في كتابه « رسائل زارع اميركي » ان احد المتوحشين وُيدعي « تونيسا » كان له كلب اسمه « اونيات » اكتشف بحالة الشم اموراً كهذا الامر

الله يجازي على الخير خيراً دائماً يا اخي ولا يذهب العرف بين الله والناس »

ولما وصل الولدان الى الكوخ وقفت مدام دي لاتور ومرغريت على سبب غيابهما قبلتاهما وشكرتاهما على جميل صنعهما

٧

الزراعة والاسماء

وعلى ذلك فقد كانت معيشة هاتين العائلتين في الطبيعة على انفراد باعثاً على زيادة الانسانية فيهم وانماء الفضيلة في نفوسهم بدلاً من جعلها نفورة وحشية الاخلاق . وقد كانوا جميعاً يشكرون العناية الالهية ويعجبون بقوتها التي اخرجت على ايديهم من تلك الارض الصخرية الجدباء خيرات كثيرة وجعلتها حدائق غناء . فان بولس من جهة ودومنيك من جهة اخرى كان لا همَّ لهما الاَّ غرس الاشجار وزراعة الحبوب والنباتات فيها . وقد كانوا يزرعون هنا ليموناً حامضاً وبرتقالاً وهناك شجراً من التمر الهندي وهنالك نخيلاً وموزاً وفي تلك الجهة حبوباً كالارز والحنطة وغيرها . وكان كل غذائهم من هذه الاثمار والحبوب والنباتات . وقد زرع بولس ودومنيك هذه المزروعات بشكل جميل خصوصاً في هذه الحديقة التي امام الكوخين . فانهما كانا يغرسان فيها الشجيرات الصغيرة في الصف الاول ويغرسان وراءها شجيرات اكبر منها وهكذا الصغرى فالصغرى فكان الواقف امام الكوخين يصل نظره الى جميع الاشجار المغروسة لان نوعها الصغير كان متقدماً على نوعها الكبير . فكان لذلك منظر رائق تنبسط له النفس . وكانوا في كل مساء يخرجون الى تلك الصخرة التي امامنا ويجلسون عليها تحت الشجرة لمشاهدة البحر والمدينة . وكانوا يسمونها « اكتشاف الصداقة » لانهم كانوا ينظرونني منها حين قدومي من كوخي اليهم . وكان بولس وفرجيني قد نصبا في الشجرة عصا طويلة حتى اذا ظهرتُ لهم من اعلى الجبل رفعا عليها علماً دلالة على قدومي . وقد صنعا في الجبل مثل ذلك ايضاً فقد نصبا في قمته عصا اخرى كانا يرفعان عليها علماً آخر كلما شاهدا باخرة تمرُّ في عرض البحر . اما انا فقد كنت اتسلى احياناً بان احفر لهم ابياتاً من الاشعار اللاتينية في بعض الاماكن . فحفرت تحت العلم المنصوب فوق الشجرة بيت هوارس « ليدبرك اله الريح ولا يُرسل عليك غير النسيم » وحفرت على جذع شجرة كان بولس يستريح تحتها من تعب النهار ويشاهد البحر المزبد امامه بيت فرجيل « ما اسعدك يا بنيَّ لانك لا تعرف غير اله الحقول » وحفرت على باب

كوخ مدام دي لاتور بيتاً آخر لفرجيل « هنا ضمير حي ونفس لا تعرف الخداع » اما فرجيني فانها كانت لا تستحسن اياتي اللاتينية · وانتقدت كتابتي تحت الراية المنصوبة في الشجرة فقالت : لو كتبت تحتها « تضطرب دائماً ولكنها ثابتة » لكان ذلك ابلغ · فنظرت اليها واجبتها « هذا القول اكثر انطباقاً على الفضيلة منه على الراية » فغضت طرفها عند هذا الكلام وصبغ الحياء وجنتيها

وكان لنا في تسمية الاماكن باسماء الامور التي تقع فيها بعض التسلية · فقد سمت مدام دي لاتور ومرغريت شجرة قديمة جلستا تحتها عند التقائهما اول مرة لتتحادثا بمصائبهما « مسح الدموع » وسمى بولس وفرجيني حاقة من شجر البرتقال كانا يرقصان في وسطها « ساحة الاتحاد » وقد خططت الامّان قطعتي ارض وسمتا الواحدة « بريتانيا » والاخرى « نورمنديا » تذكاراً لوطنيهما · وكانت هذه الاسماء كثيرة حتى انني اذا اجلت نظري الآن في هذا المكان خيل لي انني بين اطلال اليونان حيث لا يجد الانسان الا خرائب واسماء جميلة

٨

نبع فرجيني

ولكنّ اجمل الاماكن في هذه الحدائق كان المكان المسمى « استراحة فرجيني » · فانه كان تحت الصخرة المسماة « اكتشاف الصداقة » نقر واسع ينبجس منه ماء صاف كالبلور · وكانت فرجيني تذهب احياناً وتنام في ذلك النقر على شاطئ النبع ولذلك سمي المكان « استراحة فرجيني » وكان بجانب هذه العين شجيرتان صغيرتان من النارجيل اسم الواحدة « شجرة بولس » واسم الثانية « شجرة فرجيني » لان ام بولس غرست الاولى يوم ولادته وام فرجيني غرست الثانية يوم ولادتها · وكانت الشجيرتان تنموان بنمو الولدين وهما متجاورتان كانهما خارجتان من ساق واحدة · وكانت شجرة بولس اكبر من شجرة فرجيني قليلاً كما كان بولس بالنسبة الى فرجيني · ولما راى بولس ان رفيقته تحب الاقامة في هذا المكان ذهب الى الحرش وجاء منه بكثير من اعشاش الطيور ووضعها في الاشجار التي كانت حول النبع · فتبعت امات (١) الطيور صغارها الى النبع وجعلته موطناً لها ·

---

(١) يقال « امهات » للحيوان العاقل اي الانسان مثال ذلك « امهات الاولاد » « وامّات » للحيوان الغير العاقل مثال ذلك « امات الطيور »

وكانت طيور البحر ترى من الشاطىء ذلك المكان الاخضر الخصيب فتأوى اليه ايضاً وتبيت فيه . فازدادت فرجيني حباً لنبعها . وكانت اذا خرجت من الكوخ تقصد النبع



نبع فرجيني — هي والطيور — شجرة بولس وشجرة فرجيني

طارت لاستقبالها جميع الطيور التي كانت مجتمعة حوله لانها الفتها . ثم ان هذه الطيور كانت تقع قريباً منها او ترف حولها لان فرجيني اعتادت ان تنثر الحبوب لها . وكانت هذه الطيور الوحشية النافرة التي لا تدنو من الانسان مائة خطوة في عرض البر تصل الى قدميها كانها دجاج بيتية . فكان ذلك يسر بولس وفرجيني سروراً شديداً

٩

معيشتهم الطبيعية

اما مبادىء هاتين العائلتين الدينية فقد كانت مبنية على العواطف . فانهم كانوا يعجبون في كل حين بذلك العقل العام المدبر الذي يدير العالم وتلك العناية الالهية المسالمة للبشر والعاملة لفائدتهم . وكان اعتقادهم هذا الاعتقاد الثابت يبث فيهم روح التعزية عن الماضي ويشجعهم في الحاضر ويؤملهم في المستقبل . وعلى ذلك فان هاتين المرأتين اللتين اضطرتهما مصائبهما الى الرجوع للطبيعة والمعيشة فيها قد وجدتا في الطبيعة قوة على غرس الفضائل التي تكفل دفع تلك المصائب في نفسيهما ونفسي ولديهما

وكانوا في فصل الصيف يذهبون في كل يوم احد الى الكنيسة فكان الاغنياء والفقراء يحيطون بهم لمشاهدتهم وذلك لما سمعوه عنهم من الفضل وما رأوه في وجوههم من دلائل البساطة

والصلاح والفضيلة. وكان الاغنياء يدعونهم الى منازلهم فيعتذرون لهم بلطف لانهم كانوا يعرفون ان الكبار لا يطلبون صداقة الصغار الا ليتزلف هؤلاء اليهم ويمدحوا كل اعمالهم قبيحها وحسنها . وكذلك كانوا يجتنبون مخالطة صغار السكان لانهم يكونون على الغالب كثيري الحسد والنميمة والغلاظة . ولذلك كان الاولون يحسبونهم ضعفاء مساكين والآخرون يحسبونهم متكبرين متغطرسين. غير ان لطفهم في الرفض والاجتناب واحسانهم الدائم الى الفقراء والمرضى كان يكسبهم الكرامة والاحترام لدى الكبار والصغار معاً

ذلك ان كل اهتمامهم في هذه الزيارة كان مصروفاً الى المرضى والفقراء. وكانت فرجيني تهيء في المنزل الادوية التي تأمرها امها بتهيئتها ثم تجيء بها في يوم الاحد في طريقها . وكلما سمعوا بمريض او مريضة من الفقراء ذهبوا لعيادتها وتخفيف تعبها . وكانت مدام دي لا تور تحادث المريضة عن الله ورحمته وعنايته حديثاً يدخل النفوس فيخيل للسامعين ان العناية التي تتكلم عنها تلك السيدة موجودة بينهم. وكثيرًا ما عادت فرجيني من هنالك وعيونها مبتلة بالدموع من شدة التأثر

وكانت هذه الحياة الجديدة ممزوجة بشيء من الهزل . فقد كان بولس وفرجيني يمثلان امام الجميع في اوقات الفراغ قصصاً ادبية كنا نصرف الوقت في التسلي بها . واحياناً كانت مدام دي لاتور تقص علينا في الليل قصصاً نصغي اليها بلذة وسرور

وكان الفقراء قد اهتدوا الى هذا المكان وعرفوا صلاح سكانه فلم يلبثوا ان صاروا يفدون عليه ويطلبون المساعدة. فكانت العائلتان لا تردان لهم طلباً . وكانت فرجيني تقول في كل مرة تساعد فيها فقيرًا « سعادة الانسان في ان يهتم بسعادة غيره »

١٠

حنو بولس وحنو فرجيني

وانكم انتم ايها الاوربيون تجهلون مبلغ السعادة التي تكون لابن الطبيعة بمعيشته في النور والهواء والسرور الدائم . ذلك لان نفوسكم ينطبع فيها منذ الصغر مبادىء تخالف المبادىء المؤدية الى السعادة الحقيقية . وعقلكم الذي تحصرونه في بعض المعارف البشرية لا يلبث ان يصل في ملاذه الى حدها الاخير . اما ملاذ الطبيعة والقلب فلا حدّ لها

وهكذا كانت ملاذ بولس وفرجيني · نعم انه لم يكن لديهما ساعة لمعرفة الوقت ولا تقاويم ولا كتب في الفلسفة والتاريخ ولكنهما كانا في غنى عن ذلك كله · فقد كانا يعرفان ساعات النهار من نظرهما الى اظلال الاشجار · و يعرفان فصول السنة من اثمارها وازهارها · وعدد السنين التي تمرُّ عليهما من عدد مواسم الحنطة والارز · وقد كان هذا التوقيت الجديد يجعل في حديثهما صورًا جميلة · فقد كانت فرجيني تقول للعائلة عند الظهر « جاء وقت الغداء لان ظل اشجار الموز صار على جذوعها » وفي المساء « لقد اقبل المساء لان التمر الهندي اخذ يطوي اوراقه » واحيانًا تسألها بعض جاراتها « متى تزورينا يافرجيني » فتجيبهن « في ايام قصب السكر » فيجبنها « اهلاً بك وستكون زيارتك حلوة مثله » واذا سُئلت عن عمرها وعمر بولس فانها كانت تقول « اخي عمره كعمر شجيرة النرجيل الكبيرة التي على النبع وانا عمري كعمر الشجرة الصغيرة · ومنذُ ولدتُ الى اليوم اثمرت شجيرة الهند اثنتي عشرة مرة وازهرت اشجار البرتقال ٢٤ مرة » وهكذا كانت حياتهما مرتبطة بحياة الاشجار والازهار فلم يكن يعرفن شيئًا غيرها

وما الذي يوجب عليهما ان يعرفا غير ذلك · واي فائدة لهما في ان يكونا غنيين عالمين كما يطلب باقي الاولاد · اليست قلة حاجاتهما وجهلهما هما اللذان كانا سبب سعادتهما وهنائهما · فانهما في هذه المعيشة الطبيعية البسيطة لم يجعد الهمُّ لهما جبينًا · ولا افسدت الشراهة لهما دمًا · ولا دخلت شهوة رديئة لهما قلبًا لتفسده وتجعله رديئًا · بل انهما كانا يعيشان كل يوم في الحب والطهارة والتقوى · فكانت هذه الفضائل تنمي فيهما كل يوم جمال النفس وجمال الجسد معًا · فكانهما كانا في صبيحة عمرهما هذه كما كان في جنة عدن ابوانا الاولان حينما خرجا من يد الله · فان فرجيني كانت كحواء في لطفها واتضاعها وثقتها · و بولس كآدم اذ كان له جسم الرجال ونفس الاولاد

وكثيرًا ما كان بولس ينفرد بفرجيني فيقول لها « اذا كنتُ تعبًا فاول ما انظركِ يزول تعبي · ومتى رأيتك من قمة الجبل وانتِ في وسط هذا الوادي يخيل لي انك زرُّ ورد بين هذه الاشجار · واذا سرتِ الى البيت كانت خطاكِ اخف من خطى الحجل على العشب · ومتى غبتِ عن نظري فانني لا احتاج للتفتيش عنك لمعرفة مكانك لان نفسي تجد دائمًا اثرًا منك في الهواء حين مرورك وعلى العشب حين جلوسك عليه · وحينما ادنو منك تضطرب حواسي كلها · فانني ارى زرقة السماء اقل جمالاً من زرقة عينيك واصوات الطيور اقل رخامة من صوتك · واذا مسستك مسًا باصبعي يرتعد جسمي كله ارتعاد

الابتهاج والسرور . تذكري ذلك اليوم الذي قطعنا فيه الجبل للشفاعة بالزنجية وكيف حملتك على ظهري حين عودتنا لنقطع الجدول . فانني لما وصلت الى الجدول كنت في غاية التعب ولكني لما حملتك على ظهري خيل لي من القوة التي عادت الي انني صرت ذا جناح كالعصافير . فقولي لي باي شيء سحرتني هذا السحر . ابعقلك ؟ ولكن عقل امك وامي اكبر من عقلك . ابقبلاتك ؟ ولكن امي وامك تقبلانني اكثر منك . بماذا اذاً ؟ اظن انك سحرتني برقة قلبك وجمال نفسك . فانني لا انسى قط انك قطعت الحرش والجبل حافية القدمين على الحصى لطلب العفو عن زنجية مسكينة »

اما فرجيني فانها كانت تجيبه « لست اسرّ باشعة الصباح حين ظهورها على رؤوس هذه الصخور سروري برؤيتك . انني احب امي وامك ولكنني حينما اسمعهما تناديانك « يا بني » يزداد حبي لهما . ومتى قبلتك فان ذلك يؤثر فيّ اكثر من تاثير قبلاتهما لي . ولقد سألتني: لماذا تحبني . فانا اجيبك ان كل الذين يربون معاً يحبون بعضهم بعضاً . انظر الى طيورنا التي تنشأ في اعشاش واحدة الا تراها تحب بعضها بعضاً مثلنا . اسمع اسمع كيف ينادي بعضها بعضاً من اعلى الجبل الى هذا الوادي . انني اصلي الى الله في كل يوم من اجل امي



فرجيني تمسح العرق عن وجه بولس

وامك ومن اجلك ومن اجل الخادمين . ولكنني لما الفظ اسمك في صلاتي اشعر بزيادة تقواي . وانني اسال الله في كل حين ان يقيك كل مكروه . لماذا تبعد في الحرش كثيراً

وتصعد الى اعالي الاشجار لتاتيني بازهارها واثمارها . انما لدينا في الحديقة ما يكفينا منها. انظر انظر كيف ان العرق يتصبب من جبينك » — ثم انها كانت تتناول منديلها وتمسح العرق عن جبينه ووجنتيه الموردتين وتقبله فيهما عدة قبلات »

١١

الم فرجيني الجديد

ولكن فرجيني لم تلبث بعد ذلك ان عراها الم كانت تجهله. فطُوقت عيناها الجميلتان بطوق ازرق واصفر لون وجهها واصاب جسمها ذبول عام اضعفه وزال ما كان على جبينها من دلائل الهدوء وما في شفتيها من الابتسام . واصبحت تجتنب العابها الاعتيادية ورياضتها اليومية وتقصد الجهات البعيدة طالبة الراحة في كل مكان دون ان تجدها في مكان . وكانت اذا وقع نظرها على بولس اتجهت اليه ركضاً ولكنها متى دنت منه كانت تسكن بغتة وتصطبغ وجنتاها الصفراوان بلون الورد دون ان يكون لعينيها جرأة على النظر الى عينيه . فكان بولس يقول لها : « ان العشب الاخضر يغطي كل الصخور التي حولنا والطيور تناديك كلما وقع نظرها عليكِ وكل شيء مبتهج مسرور حولكِ الا انتِ فانكِ منقبضة الصدر » — وحينئذ يدنو منها ليقبلها . فتنفر منه وتفرّ كالغزال الشارد قاصدة امها . ذلك ان هذه الفتاة المسكينة كانت تشعر ان قبلات بولس صارت تلقي الاضطراب في نفسها . اما بولس فانه لم يكن يفهم شيئاً من هذا الامر الجديد ولذلك كان في هم شديد وحيرة شديدة

وكان الحرّ في « جزيرة دي فرنس » يشتد في ثلاثة اسابيع في اثناء السنة الى درجة غريبة . فان الينابيع كانت تجف والريح تهمد والليل نفسه كان حارّاً حتى ان المواشي التي كانت على الجبال في هذا الاوان كانت ترفع رؤُوسها الى السماء كانها تستغيث من حر الارض . ففي ليلة من هذه الليالي الحارة اشتدّ الم فرجيني في فراشها . فاخذت تتقلب تقلب الملسوع . ثم صارت احياناً تقوم واحياناً تجلس واحياناً تنام دون ان يجد الكرى سبيلاً الى جفنيها والراحة سبيلاً الى نفسها . فنهضت من فراشها وسارت على اشعة القمر الى نبعها لتستحم في مائه تبريداً للحرارة الشديدة . ولما وصلت الى النبع القت نفسها في حوضه فارتاحت نفسها للبرودة التي اصابت جسمها وهداء بالها قليلاً . ولكنها لم تلبث ان عادت اليها افكارها لما وقع نظرها على شجرة بولس وشجرتها في جانب النبع . فتنهدت تنهداً

لكربها • ثم القت نظرها الى ما حولها فراعهـا ذلك السكون واخذ الماء يسخن لامتصاصه حرارة جسمها فخرجت منه بسرعة وزاحت تركض الى امها تطلب عندها ملجاء مما كان في نفسها • اما امها فانها كانت قد درت بالمها ولكنها كانت لا تجسر على مخاطبتها فيه • وقد رامت فرجيني احياناً ان تسال امها المعونة واوشكت مراراً ان تبكي امامهـا وتلفظ اسم « بولس » لديها ولكن ضيقاً في نفسها كان يمنعها من ذلك كلما حاولته • ففي هذه الليلة حينما جاءت فرجيني والقت نفسها بين ذراعيها قالت لها هذه الام العاقلة : « وجهي نفسك الى



فرجيني تشكو المها الجديد الى امها

الله يا بنية وكلي اليه امرك • فمنه وحده الصحة والحياة • وهو يجربك الآن ليكافئك غداً • ولا تنسي اننا لم نُخلق على هذه الارض الا لممارسة الفضيلة »

ولكن بعد ايام الحرّ هذه هبت على الجزيرة عاصفة هائلة وانفتحت ابواب السماء فنزل منها على الارض مطر غزير برّد حرارتها • فلزمت العائلتان الكوخين مدة الزوبعة والمطر وهما تصليان الى الله ان يدفع عنهما الخطر • اما بولس الشجاع الباسل فانه خرج مع دومنيك لتقوية الكوخين وافتقاد الحديقة • ولما زال خطر الزوبعة رامت فرجيني الخروج من الكوخ فدنا بولس منها بجبن وخوف وقدم لها ذراعه • فاخذتها فرجيني باسمة وخرجت معه • فلما صارا في الحديقة وجدا ان المطر والريح قد جرفا الارض وكسرا الاشجار وخربا الحديقة كلها • اما نبع فرجيني فقد غمره السيل واجتاح كل ما كان حوله • وكانت بعض الطيور

على الاغصان تئن انيناً ضعيفاً كانها تبكي اعشاشها وفراخها التي ذهبت الزوبعة بها . فالتفتت فرجيني حينئذ وقالت باسف « كل شيء في الارض يزول الا السماء فانها تبقى كما هي » فقال لها بولس « ليتني قادراً على ان اعطيك شيئاً من السماء ولكنني لا املك شيئاً في الارض فكيف فيها » فاجابته فرجيني « بل انك تملك صورة القديس بولس »

فلما سمع بولس هذا الكلام طار ركضاً الى الكوخ وعاد بهذا الرسم . وكانت امه قد جاءت به من اوربا وفي اثناء معيشتها منفردة عن الناس كانت تتعزى بالنظر اليه لان هذا الرجل عاش مثل هذه المعيشة . ولذلك سمت ابنها باسمه . فلما القى بولس هذه الصورة الى فرجيني اخذتها هذه قائلة « ساحفظها يا اخي الى آخر نسمة من حياتي ولا انسى انك اعطيتني الشيء الوحيد الذي تملكه في هذا العالم » فلما سمع بولس من فرجيني هذه اللهجة الودادية التي مرّ عليه زمن ولم يسمعها منها سُرّ وهمّ بتقبيلها . اما فرجيني فانها افلتت منه كالعصفور وركضت نحو الكوخ تاركة بولس المسكين في سخط وهياج شديد

١٢

الاستعداد للسفر

وفي ذات يوم قالت مرغريت لصديقتها مدام دي لاتور « لماذا لا نزوج بولس بفرجيني؛ فان الواحد منهما يحب الآخر حباً شديداً . نعم ان ابني لم ينتبه الى ذلك بعد لان الطبيعة لم تحدثه بلغتها الى الآن ولكنها متى حدثته صار من الصعب السهر عليهما ومراقبتهما» فاجابتها مدام دي لاتور « انهما صغيران وفقيران يا اختي فماذا يحلّ بنا متى رزقا الاولاد وعجزنا عن خدمتهم لضعفنا جميعاً . فدعي هذا الامر حتى يقوى بولس ويصير قادراً على القيام بحاجاتنا . وما قولك في ارساله الى الهند للاتجار فيها فانه لا يقيم هنالك بضعة اسابيع حتى يجمع شيئاً من المال فيشتري به بعض الزنوج ويعود للزراعة في هذه البلاد . هل ترومين ان نستشير جارنا في ذلك »

وفي الواقع ان هاتين السيدتين استشارتاني في هذا الامر في اليوم الثاني . فوافقت على رأيهما وقلت لهما ان بولس اذا اخذ من هذه الجزيرة شيئاً من القطن الرخيص الثمن عندنا لعدم وجود معامل لحلجه ونسجه واغصان الابنوس الكثيرة في احراشنا حتى اننا نتخذها للوقد كالحطب فانه يربح بها في الهند ارباحاً كثيرة . ولكنني لما اطلعت بولس على هذا الامر اظهر الرفض البات وقال انه لا يترك العائلتين وحدهما خصوصاً فرجيني التي

كانت متالمة في ذلك الوقت

فاوقعني جوابه هذا في حيرة شديدة ٠ ذلك ان مدام دي لاتور كانت قد ابلغتني سرًّا رغبتها في ابعاد بولس عن فرجيني مدة من الزمن ٠ وبينما كنت مفكرًا بذلك واذ ورد على مدام دي لاتور من عمتها الغنية في فرنسا كتاب مع سفينة قدمت الى الجزيرة٠ وكانت هذه العمة القاسية قد اصيبت بمرض افنى قواها فكتبت الى مدام دي لا تور بن خوفها من الموت ان تعود اليها مع فرجيني واذا كانت لا تستطيع السفر فلترسل فرجيني وحدها ٠ وقد قالت في كتابها انها عزمت على ترك اموالها واملاكها كلها لها اذا ارسلتها وتدبر لها زوجاً عظيم الشان في البلاط الملكي اما اذا لم ترسلها فانها تحرمها من كل ارث منها

فلما تُلي هذا الكتاب على العائلتين ساد القلق والجزع فيهما ٠ واخذ العبد دومنيك وزوجته يبكيان لهذا الخبر ٠ واما بولس فانه كان جامدًا كالصنم ولكن كل ناظر اليه كان يعلم ان زوبعة الغضب والغيظ كانت في صدره قريبة الظهور ٠ واما فرجيني فانها كانت شاخصة بعينيها الى امها وهي ساكتة ٠ فنظرت مرغريت الى صديقتها وقالت لها : « هل تتركيننا يا اختي » فاجابت مدام دي لا تور « لا لا ٠ لا اتركم فانني عشت معكم واريد ان اموت معكم »

فساد الفرح عند ذلك في العائلتين ٠ واخذ بولس يقبّل مدام دي لا تور ويشكرها٠ وظهر على وجه فرجيني شيء من دلائل السرور ايضاً ومنذ هذا الحين زال انقباضها فازداد بذلك سرور العائلتين

ولكن ما طلع صباح اليوم التالي حتى صعد حاكم الجزيرة نفسه الى الكوخين وقابل مدام دي لا تور ٠ وكان غرضه من ذلك ابلاغها ان الادارة قد كتبت له بان ياخذ فرجيني بالقوة ويرسلها الى عمتها في فرنسا اذا كانت امها تعارض في ذلك ٠ ثم القى امامها كيساً مملوءًا بالنقود لتهيئة فرجيني للسفر وقال لها في السر « انني متحقق ان عمتك لا تعيش اكثر من سنتين فلا تضيعي ثروتها من يدك فان ذلك يجب عليك من اجل ابنتك »

وكانت مدام دي لا تور لا تكره في الباطن ابعاد فرجيني عن بولس مدة من الزمان فامتثلت امر الحاكم ٠ ولكنها لما خاطبت في ذلك ابنتها فرجيني اجابتها هذه « ان الله فرض علينا العمل كما قلت لي مرارًا وعنايته لا تهمل الفقراء على الخصوص كما علمتني ٠ فما

الواجب اذاً السفر · انني لا استطيع فراقك » فاجابتها امها « لا همّ لي يا بنية في هذا العالم غير جعلك سعيدة وتزويجك ببواس يوماً من الايام · فافتكري منذ الآن ان سعادة بواس بين يديك ولذلك دعوتك للسفر »

فلما سمعت فرجيني اسم بواس من امها طفحت كاس حبها فاطلعتها بخجل وحياء على ما في نفسها من الالم وكيف كانت تصارع ذلك الالم مصارعة لم يقف عليها احد غير الله · فاجابتها امها بهدوء « اكتمي يا بنية حبك عن بولس فان الفتاة متى استولى حبيبها على قلبها لم يعد يجوز له ان يطلب شيئاً غيره »

ولكن لم يكد يهبط المساء حتى دخل عليهم رجل ضخم الجثة يلبس ثياب الرهبان · وكان هذا الراهب معلم اعتراف مدام دي لاتور وابنتها · فالتفت الى الام وقال : ليكن اسم الله مباركاً يا بنية فانك قد صرت ذات ثروة طائلة · وقد اصبحتِ بعد الآن قادرة على مساعدة الفقراء والعمل بما يوحيه قلبك الكريم · ثم التفت الى فرجيني وقال : لقد علمتُ بما دار بينكم وبين الحاكم من الكلام · فاخضعي يا بنية للعناية الالهية ولارادة اهلك الطاعنين في السن وان كانوا ظالمين · فان هذه هي ارادة الله · الا ترضين بالسفر يا بنية »

فاطرقت فرجيني حياء ثم قالت وصوتها يرتجف « اذا كانت هذه هي ارادة الله فانني اسافر ولتكن ارادته » ثم بكت وانطرحت بين يدي امها

اما انا فانني كنت معارضاً في هذا السفر ولكن معارضتي لم تجدِ نفعاً بازاء بريق الثروة الطائلة وامر الراهب الذي كانت ارادته مقدسة عند مدام دي لاتور · واما بولس فانه كان يجهل هذه المخابرات كلها · وكان كلما رآنا في همس ومخابرات سرية هزّ راسه وقال بحزن « لا ريب في ان كل ذلك موجه ضدي لانهم يخفونه عني »

١٣

غضب وعهد

ولما ذاع في المدينة ان الثروة قد طرقت هذين الكوخين صعد اليهما كثيرون من باعة الانسجة والنفائس · فابتاعت فرجيني للعائلتين كثيراً من الاشياء حتى نفدت النقود من الكيس قبل ان تفتكر بنفسها · ولذلك عادت وشاركتهم في الاشياء التي ابتاعتها فاقتسمتها بينهم وبينها · ولما راى بولس ذلك تحقق انه من قبيل الاستعداد للسفر فقصدني وطلب اليّ ان اذهب واقنع فرجيني بالعدول عنه · فجئتُ الى هنا فشاهدتُ فرجيني في

ثوب جميل مشدودة الخصر بالكورسه والانفعال بادٍ في وجهها · وكان هذا الانفعال الذي كانت تغالبه ويغالبها يجعل في عينيها ذبولاً غريباً وفي وجهها لوناً رائقاً وفي صوتها نغمة مؤثرة · فلم يكن احد قادراً على رؤيتها او سماع كلامها دون تأثر واعجاب · ولذلك ازداد تأثر بولس وحزنه على سفرها · وفي مساء ذلك اليوم خرجت فرجيني بعد العشاء الى هذا المكان وجلست تحت الشجرة على صخرة « اكتشاف الصداقة » فتبعها بولس وجلس بجانبها · وكان الليل صافياً والقمر منيراً في الافق · فلبث الاثنان ساكتين مدة وكنا نحن جالسين على مقربة منهما · ثم افتتح بولس الكلام فقال : « اصحيح يامدموازل انك تسافرين بعد ثلاثة ايام كما سمعت · وكيف لا ترهبين اخطار البحر مع شدة خوفك منه » فاجابت فرجيني « ما العمل فانه يجب عليّ ان اقوم بالواجب المفروض عليّ » فقال بولس « وكيف تتركيننا من اجل اهلٍ بعيدين عنك ولم تريهم وجهاً » فقالت فرجيني « كنت احب البقاء هنا ولكن امي لا ترضى بذلك والكاهن قال ان الله يامرني بالسفر » فقال بولس « اهذه هي كل الاسباب التي حملتك على السفر ام هنالك اسباب اخرى · نعم هنالك الثروة وبريقها يامدموازل والعالم وملاذه والدنيا وابهتها · فاذهبي · انك ستجدين اخاً غيري بين اصحاب الثروة والجاه في تلك البلاد ولكنك لا تجدين ابداً هناءً وسعادة كالسعادة التي وجدتها هنا · ولكن اخبريني ماذا يحل بنا بعدك · كيف نعيش هنا ايتها القاسية بدونك · ماذا اقول لامك ولامي كلما رايتهما تبكيان لغيابك · كيف تكون حالتي كلما القيت نظري في النبع الى شجرتك · آه لماذا لا تدعينني اذهب معك · انني اهدئ روعك حين اشتداد العواصف لانك تخافين منها خوفاً شديداً · ومتى وصلنا الى فرنسا فانني اخدمك كعبدك وخادمك واموت في قصرك المذهب العظيم تحت قدميك وفي خدمتك »

ثم خنقت الزفرات صوته فسكت فاجابت فرجيني بصوت لطيف « انني لا أسافر يا اخي الا من اجلك · وذلك لانني اراك محنياً الى الارض في كل يوم لتسد حاجات عيلتين · فمتى صرتُ غنية استطعت ان ارد اليك الخير الذي صنعته معنا مائة ضعف · بولس بولس انت لدي اعز من اخ · والله يشهد على ما عانيته من الشدة في الابتعاد عنك · وقد كنت اؤمل انك تساعدني على هذا البعد مدةً الى ان يجيء الوقت الذي يسمح الله فيه بمباركة قراننا · اما الآن فان حزنك يفني قوتي ويضعف عزمي · فسابقى · ساكون لك في الموت والحياة · فاصنع بي ما تشاء · لقد قدرت على مقاومة قبلاتك وحنوك ولكنني

عاجزة عن الثبات لدى دموعك »

فلما نطقت فرجيني بهذا الكلام هجم بولس فعانقها بين يديه ثم صرخ باعلى صوته « ساسافر معها ساسافر معها اذ لا يفصلني شيء عنها »

فحين سماعنا هذا الصوت اسرعنا اليهما · ودنت مدام دي لاتور من بولس وقالت له « ماذا يحل بنا اذا تركتنا وحدنا يا بني »

فالتفت اليها بولس حينئذ وقال بغضب هائل «است ابناً لك · ولست بامي · كيف تكونين امي مع انك تفصلين الاخ عن اخته · لقد رضعنا كلانا لبنك ونشأنا على يديك وتلقينا منذ الصغر محبتك فكيف يجوز لك ان تفصلي الواحد عن الثاني · ربما تقولين : انها ليست باختي · فانا اجيبك انها كل شيء لي : هي ثروتي وعيلتي ونسبي وحياتي ولا تملك يدي شيئاً سواها · لقد ولدنا تحت سقف واحد وربينا في سرير واحد ويجب ان نموت في قبر واحد · فاذا سافرت فانني اتبعها الى اقاصي البلاد · واذا منعني حاكم الجزيرة القيت بنفسي في البحر وسبحت اليها · فان البحر لا يكون اشد ظلماً لي من البر · واذا مت فيه مت على مرأى منها · فيا ايتها الام البربرية · يا ايتها الام القاسية · ليقدر الله لهذا البحر الذي تدفعين ابنتك اليه ان لا يردها اليك · ليقدر لامواجه ان تاتيك بجثتي وجثتها متدحرجتين بين الحجارة على الشاطئ لتحزني على صنيعك هذا حزناً ابدياً »

فلما اتى على هذا الكلام اخذته من ذراعه لان اليأس كان قد اضاع رشده وكانت عيناه تتقدان بجمر الغضب والعرق يتصبب على وجهه · فارتاعت فرجيني من منظره فقالت له : « اقسم بسعادتنا الماضية يا اخي انني اذا عشت فانني لا اعيش الا لك · ويشهد على ذلك هؤلاء الذين ربوني وهذه السماء التي تسمع كلامي وهذا البحر الذي سيحملني وهذا الهواء الذي لم ادنسه قط بقول كاذب »

فعند هذا الصوت صوت الحبيب ذاب غضب بولس كما يذوب الثلج لدى حر الشمس وجرت من عينيه دموع غزيرة · اما امه فكانت بجانبه تمزج دموعها بدموعه · واما مدام دي لاتور فانها اخذت تقول « لقد كادت نفسي تتمزق من الحزن · فلا كان هذا السفر فاننا عدلنا عنه » ثم التفتت الي وقالت «لا تسافر فرجيني بعد الآن فخذ بولس اليك ليستريح فاننا جميعاً لم ننم منذ ثمانية ايام »

١٤

الفراق

فقلت لبولس حينئذ ان يذهب معي ليصرف الليل عندي فلم يمانع في ذلك · ولكنه ما اشرق الفجر حتى عاد الى هنا

غير انه لم يصل الى هذه الصخرة حتي وجد الزنجية ماري واقفة عليها وهي تنظر الى البحر · فطار صواب بولس فصرخ بها من بعيد « اين فرجيني » فنظرت الزنجية الى سيدها بولس واخذت تبكي · فاسرع بولس كالبرق الخاطف الى الميناء وهو ضائع الرشد فعلم منه ان فرجيني ركبت قبل الفجر سفينة كانت تنتظرها واقلعت السفينة بها · فعاد بولس الى الكوخ صامتاً ثم قصد ذلك الجبل الشامخ فتسلقه حتى بلغ قمته ثم القى نظره منه الى البحر · فوجد في البحر سفينة بعيدة كانها نقطة سوداء · فالوى راسه هنالك على الصخور والحجارة واخذ يبكي بكل ما في عينيه من الدموع · ولقد وجدته في هذه الحالة على الجبل فعدت به الى البيت · فلما رأى ام فرجيني استشاط غيظاً وعنفها لانها خدعته · فاجابته ان الحاكم مع بعض من المرسلين جاءوا قبل الفجر عند هبوب الريح واخذوا فرجيني بالقوة لارسالها الى عمتها لان السفينة عزمت على السفر في تلك الساعة · وقد اخذوها من غير ارادتنا ولا ارادتها لانها كانت في حالة يُرثى لها من الحزن · فقال بولس « كان يجب على الاقل ان اودعها قبل سفرها لاقول لها « صفحاً يافرجيني اذا كنتُ قد اسأت اليك بامر · افلا تصفحين لي · وكنت اقول لها ايضاً : بما انني لا اراك بعد الآن فالوداع الوداع يافرجيني · وعيشي بعدي مسرورة سعيدة » فلما سمعت مدام دي لا تور ومرغريت هذا القول صارتا تبكيان · فقال لها بولس حينئذ « فتشا عن واحد غيري ليمسح دموعكما » ثم تركهما وهام على وجهه بين الآكام والاشجار

وكانت الشاتان تتبعانه وتثغوان فقال لهما « ماذا تطلبان مني فقد ذهبت التي كانت تطعمكما بيدها » ولما وصل الى نبع فرجيني اخذت الطيور تحوم حوله · فقال لها « مسكينة انتِ ايتها الطيور فانك لا تجدين بعد اليوم تلك التي كانت تغذيك » ونظر الكلب «فيدل» يركض من مكان الى مكان كمن يفتش على ضائع فقال له « انك لا تجدها ابداً » · وكنا نحن نتبعه من بعيد من خوفنا على حياته فلما وصلنا اليه اخذت ام فرجيني تكثر ملاطفته وتسميه ابنها وصهرها والرجل الذي اختارته لابنتها · فخمد حزنه قليلاً ورضي بان يتناول شيئاً من الطعام · ولكنه لما جلس في مكانه على المائدة تناول من الطعام الذي

كانت تحبه فرجيني ووضعه في المكان الذي كانت قد اعتادت الجلوس فيه غير انه لم يلبث ان انتبه الى غيابها فعاد الى البكاء . فبكى معه الجميع ايضاً . و بعد ذلك اخذ يفتش عن الاشياء التي كانت تستعملها فرجيني كباقاتها الاخيرة والكاس التي كانت تشرب بها فجمعها وحفظها كآثار ثمينة . وكان يقبلها احياناً و يضعها في ثيابه. الا انه لما وجد ان حزنه مما يزيد حزن العائلتين رأى وجوب العودة للعمل فاخذ يصلح في الحديقة ما اخربته الزوبعة فيها

١٥

كتاب من الحبيبة

و بعد قليل اخذ هذا الفتى يميل الى الكتابة والقراءة . اما الكتابة فلكي يكتب لفرجيني واما القراءة فلكي يقف على جغرافية البلاد التي سافرت فرجيني اليها وعلى تاريخها ليعرف عادات اهلها. فعلّمه القراءة والكتابة فلم يرتح الى كتاب من الكتب التي طالعها ارتياحه الى كتاب تلماك لانه كان قريباً من تصوراته الطبيعية . وقد خاف بعد مطالعته الروايات الاوربية وما رآه فيها من تقلب قلوب النساء ان يدب ذلك الفساد الى قلب فرجيني ايضاً . وقد زاد خوفه هذا ما سمعه من ان تلك الروايات هي وصف صحيح للهيئة الاجتماعية الاوربية

وفي الواقع ان فرجيني مرّ عليها سنة ونصف في فرنسا دون ان يرد منها خبر لامها . ولكن مدام دي لاتور كانت قد علمت بوصولها سالمة الى منزل عمتها . غير انها بعد ذلك تناولت في ذات يوم من احدى السفن المسافرة الى الهند رزمة صغيرة وكتاباً بخط فرجيني. ولما فتحت هذا الكتاب قرأت فيه ما يلي :

« امي المحبوبة

« كتبتُ اليك قبل هذا الكتاب عدة كتب لم يردني جواب منك عنها . فخشيتُ ان لا تكون قد وصلتك لانني كنت ادفعها الى خادماتي هنا . ولذلك رايتُ ان ارسل اليك هذا الكتاب على يد احدى صديقاتي في المدرسة لعله يصلك . وطيه عنوان هذه الصديقة فارجو ان ترسلي جوابك اليّ على يدها

ثم ان الفتاة تقص على امها في هذا الكتاب ما حدث لها منذ وصولها الى منزل عمتها . فقالت ان عمتها سألتها حين وصولها ماذا تعلمتِ فاجابتها انها لم تتعلم سوى تدبير

المنزل وانها تجهل القراءة والكتابة فاجابتها انها تعلمت علم الخادمات فقط · ثم ارسلتها في اليوم التالي الى مدرسة في دير كبير قرب باريز واخذت تتلقى فيها القراءة والكتابة والتاريخ والجوغرافيا والحساب والصرف وامتطاء الخيل · ولكنها لم تكن تميل الى هذه الامور كلها « لانني اشعر بانني فتاة مسكينة قاصرة كما يقولون عني » ولكن لطف عمتها يعزيها قليلاً فانها ابتاعت لها عدة اثواب وحلل فاخرة وجعلت في خدمتها سيدتين لابستين افخر الملابس · غير انها نزعت عنها اسم « دي لانور » ابيها وسمتها باسم عيلة امها · ولقد ساءها ذلك لانها تحترم تذكار ابيها ولكنها مع ذلك تحب الاسم الذي كان لامها قبل زواجها · قالت « وانني الآن اعيش في بذخ وترف تام ولكنني لا املك شيئاً مما حولي · فانا في وسط الثروة افقر مما كنتُ في وسط الفقر لانني لا اقدر ان اعطي شيئاً لاحد ولا امسح دموع احد · ولذلك عدت الى صناعة يدي لعلي استطيع ان اصنع خيراً بها · فصنعتُ عدة جوارب كما اعتدت صنعها وارسلتها اليك لتفرقيها على الجميع · وقد بعثت اليك ايضاً بعدة انواع من بزور الازهار فان ازهار اوربا اجمل من ازهارنا وفي البرية هنا كثير من الزهر الجميل ولكن لا يهتم به احد ولا يلتفت اليه احد · ولا ريب عندي ان الكيس الذي قدمته لك متضمناً هذه البزور لهو اثمن عندك من كيس النقود الذي كان سبب فراقنا ومنشأ دموعي · ولقد اوصيتني قبل سفري بان ابلغك ما يسوءني ويسرني فانا اقول لك الآن بانه لم يسرّني شيء منذ سفري · واما حزني فانني اخففه بافتكاري انني ما جئت الى ههنا الا بامرك بناء على ارادة الله · ولكن اشد عذاب لدي هو انني لا اجد من يحدثني عنك وعن الارض التي نشأت فيها · واذا رمتُ ان احادث في ذلك احدى السيدتين الموكلتين بخدمتي فانها تقول لي « اذكري ايتها المدموازل انك فرنسوية وانه يجب عليك نسيان تلك البلاد المتوحشة » ولكن هاتين السيدتين لا تعلمان انني انسى نفسي ولا انسى الارض التي ولدتُ فيها والتي لا تزال تسكنها امي · ثم انهم يقولون ان تلك الارض متوحشة وفي الحقيقة ان هذه البلاد هي البلاد المتوحشة لانني اعيش فيها وحدي »

وقد اخبرت فرجيني امها في هذا الكتاب ان خالتها تمنعها من الكتابة لانها تخاف ان تحول المراسلات بينها وبين ما عقدت عليه عزمها · ذلك انها كانت تفكر بتزويجها برجل غني من اكابر رجال البلاط · وكان هذا الرجل يزور فرجيني في المدرسة مع عمتها ويقول انها تعجبه كثيراً · ثم انها في خاتمة هذا الكتاب توصي امها خيراً بالزنجي دومنيك

وزوجته ماري وترجو منها ان تلاطف قليلاً من قبلها الكاب « فيدل » الذي وجدها في الحرش حينما تاهت فيه

فلما تلي هذا الكتاب في العائلة غضب بولس في بدء الامر غضباً شديداً لانه رأى ان رفيقته اهتمت بكل شيء في البيت حتى الكاب « فيدل » واهملته هو . ولكن بولس كان يجهل ان المراة مهما كانت رسالتها طويلة فانها لا تضع اعز فكر لها الا في آخرها . فقد كتبت فرجيني في الكتاب حاشية سالت فيها بولس ان يبزر من بزور البنفسج في نبعها وان يسمي الصخرة التي تحادثا عليها قبل سفرها « صخرة الوداع » اكراماً لها . ولما اخذ بولس هذه البزور وجد انها موضوعة في كيس صغير بسيط . ولكنه لما تامل في هذا الكيس وجد عليه الحرف (ب) والحرف (ف) وهما الحرفان الاولان من اسم بولس واسم فرجيني مرسومين على جانبه بشكل متقاطع وهما مصنوعان من خيوط شعر لا ريب في انه من شعر فرجيني لانه كان لامعاً جميلاً

فسرّ بولس بهذه الهدية الجميلة وازرفت العائلة دموع الفرح لدى قراءة هذا الكتاب . وقد ارسلت امها من قبل الجميع تخيّرها بين الاقامة حيث هي او الحضور الى وطنها الاول . اما بولس فانه كتب اليها كتاباً يشكرها على هدية البزور وقد قال لها انه سيضم بزور اوربا في ارضهم إلى بزور افريقيا كما ضمت فرجيني اسمها الى اسمه رسماً في الكيس . ثم ارسل اليها بضع ثمار من نرجيلة النبع ولم يُرسل اليها غيرها ليحملها شوقها اليها على العودة قريباً . وقد الح عليها في الرجاء بان تعود بسرعة لان العائلتين لم تكونا تجدان هناء وسروراً بعد سفرها

ولكن مرّ على هذا الكتاب ستة اشهر دون ان يرد من الفتاة جواب عنه . فقلق بولس لذلك . ومما زاد قلقه ان بعض السفن القادمة من اوربا كانت تشيع بين السكان ان فرجيني ستقترن قريباً بسيد من رجال البلاط . وبعضها قال بل انها اقترنت به وتم هذا الامر . وكان بولس قد قرأ الروايات الاوربية وراى فيها ما فيها من الاشياء التي من هذا القبيل . فوقع في الياس . وهكذا ما ابتداء يتعلم ويطالع حتى ابتداء عذابه وشقاؤه . وكان احياناً يزورني ليجلو الهمّ عن صدره فيقصدني في كوخي على شاطىء النهر الذي يجري على موازاة « الجبل الطويل » حيث اعيش بعيداً عن الناس بلا زوجة ولا اولاد ولا احد يخادمني

١٦

فلسفة المؤلف في الانفراد

ويقول عارفوه انه كان يتكلم هنا عن نفسه لانه عاش منفردًا عن الناس

ذلك لانني اعتبر ان الانسان اذا لم يجد في هذا العالم زوجة صالحة تشاركه في السراء والضراء لانطباق اخلاقها على اخلاقه فان اسهل عيش يعيشه بعد ذلك هو عيشه منفردًا وحده · وكل انسان تالم من الناس واصابه شرهم واذاهم يطلب الانفراد عنهم من طبعه · ولذلك ترى ان الشعوب التي طرأت عليها المصائب الكثيرة كالمصريين واليونان والهنود والصينيين والايطاليين يكثر فيها ظهور افراد يجنحون الى الانفراد ومعيشة النسك والزهد · وسببه ان الانفراد في الخلاء يُعيد الانسان الى السعادة الطبيعية ويدفع عنه مصائب الاجتماع · ولا عجب في ذلك فان هيئتنا الاجتماعية التي تتنازعها عوامل الشقاء والشقاق والاوهام تجعل النفس في اضطراب دائم · فهي تتدحرج فيها من فكر الى فكر ومن عثرة الى عثرة ولا همّ لها الا الطمع وحب السيادة على الغير · واما في الوحدة فانها تنفض عن نفسها فيها هذا الاضطراب وتعود الى هدوء الطبيعة وخالقها · فكانها نهر جارٍ يحمل ما في طريقه من الحجارة والغبار والتراب فيكون دائمًا عكرًا كدرًا ولكنه متى صبَّ ماءه في احواض واسعة ساكنة صفت مياهه من كل كدر لرسوب الاكدار في القعر وصارت نجوم السماء وخضرة الارض تنعكس فيها من صفائها · ومن مزايا الانفراد ايضًا انه يجلب الصحة للبدن كما يجلب الصحة للنفس لان اطول الناس عمرًا من عاشوا خارج دائرة الناس كبراهمة الهنود ومن حذا حذوهم · ويخيل لي ان الانسان لا يستطيع ان يذوق سرورًا حقيقيًا في هذه الحياة ان لم تكن له اوقات يخلو بها الى نفسه ويجعل في باطنه مكانًا منفردًا لا يخرج منه رأيه الا فيما ندر ولا يدخل اليه راي غيره ابدًا · ولست ازعم بذلك انه يجب على الانسان ان يعيش منفردًا كل الانفراد فانني لا اجهل انه مرتبط بباقي الجنس البشري وعليه واجبات لباقي اجزاء الطبيعة · وانما اعني بذلك انه كما ان الله خلق في الانسان للارض التي يعيش فيها اعضاء تلائمها وتلائم عناصرها كجعل القدمين للارض والرئتين للهواء والعينين للنور دون ان نستطيع تغيير وظائف هذه الاعضاء او العبث بها فكذلك خلق لنا عضوًا خصّ نفسه به لانه مصدر الحياة واريد بهذا العضو القلب الذي هو مصدر الحركة · ولذلك يميل القلب الى الانفراد للتامل في عظمة الله والطبيعة التي صنعها

فانا اذًا اعيش وحدي في البرّ بعيدًا عن الناس الذين اردت خدمتهم فكان جزائي عندهم الاذى والاضطهاد . وقبل ان اقيم في هذه الجزيرة طفت اوربا واميركا وافريقيا لاختار لي مكانًا . فوقع اختياري على هذا المكان لما فيه من الهدوء السائد فضلاً عن لطف الهواء . فبنيت لي كوخًا على شاطىء نهر تحت شجرة كبيرة وانشات حقلاً ازرع فيه ما احتاج اليه وجئتُ ببعض كتب اطالعها لتجعلني مطالعتها افضل مما كنت قبلها . وهذه الكتب تساعدني على احتمال معيشة الانفراد لانني متى طالعتها ورايت ما فيها من الاختباط السائد في الهيئة الاجتماعية التى تصفها وقابلت بين هذا الاختباط وبين الهدوء السائد حولي عرفت منه خير معرفة حقيقة السعادة التى انا فيها . فكانني اذوق بها لذة سعادة سلبية . كرجل نجا من الغرق وجلس على صخرة بعيدًا من الامواج المزبدة والزوابع المهلكة يُسر ويفرح بانه صار في مامن منها

ولما صرتُ بعيدًا عن الناس ذهب بغضي لهم وانقلب الى رحمة فصرت اشفق عليهم. وجعلت امدّ يدي لمساعدة كل من يقع تحت يدي منهم . ولكن لم يكن احد منهم يقبل مساعدتي الا البسطاء . فانه حينما كان ياتيني بعض الناس ليطلب مساعدتي كان يظن انني اساعده للوصول الى الثروة والجاه . ولما كنت احاول اقناعه بالعودة الى الطبيعة للمعيشة فيها بهدوء وسلام كان يحول وجهه عني ويسخر مني . فكانَ كل واحد من هؤلاء البشر المساكين نشوان من خمرة شقائه ومصائبه . وهو يفتخر ويعتزّ بها . وكان بعد استماعه كلامي يحسبني اشد شقاء منه فيحاول اقناعي بتغيير معيشتي ودفعي الى تيار المعيشة الدنيوية. اما انا فاذا كنت احادث جميع الناس والاطفهم فانني لا افتح خفايا قلبي لاحد منهم . ولذلك كنت اتركهم وشانهم يحدثونني بما يحدثون . وكنت وانا جالس امام كوخي اراجع في نفسي ما شهدته في العالم من الزحام والالتحام والاصطدام على ملاذ الحياة ومناصبها ومفاخرها فاشبه الناس الذين اقدموا على ذلك بالامواج التي تتكسر على الصخور وهي مزبدة غيظًا وحنقًا ثم تذهب ولا تعود . اما انا فانني اشبه نفسي برجل مستسلم في الطبيعة الى مجرى النهر وهذا النهر يجري به بهدوء الى اوقيانوس المستقبل العظيم الذي لا حد له. ومن هذا النهر الجاري بي بهدوء وسلام ترتفع نفسي الى خالقها الابدي وتجنح الى عالم افضل من هذا العالم

١٧

بين شيخ وفتى

ففي ذات يوم جاءني بولس وانا جالس امام الكوخ في مكاني المنفرد في الحرش وبدأ يكشف لي ما في صدره من اسباب الياس والحزن · ولا باس بذكر هذه المحادثة على سبيل المخاطبة

قال بولس — نفسي حزينة حتى الموت · فان مدموازل دي لاتور سافرت منذ سنتين ونصف وقد مرَّ عليها ثمانية اشهر ونصف دون ان يردني خبر منها · فلا ريب انها هجرتني وذهب ذكري من قلبها لانها غنية وانا فقير لا املك شيئاً · فماذا ترى · ااسافر الى فرنسا واسعى فيها للوصول الى الجاه والثروة لعل مدام دي لا تور ترضى بتزويجي بابنتها

فاجاب الشيخ — كلا يا بني · لا تسافر فانك لا تستطيع ان تصنع في فرنسا شيئاً · ذلك ان الوظائف والمناصب فيها محصورة في بعض العيال الكبرى والدوائر العالية · وان كنتَ تعتمد على الملك فاعلم ان الملك شمس تحيط به غيوم الكبار والسراة من كل جانب ولذلك لا تطمع في ان يقع عليك شعاع من نوره · نعم لقد كان هذا الامر مالوفاً في الزمن القديم وكان سبباً في احياء المواهب وانماء قوى الافراد المهملين كما تحيا بالزراعة الارض الجديدة المجهولة · ولكن قد مضى اليوم ذلك الزمن · وصار الملوك العظام الذين يكتشفون اصحاب المواهب و يساعدونهم احياء لمواهبهم اندر من كل شيء نادر · واما عامة الملوك فلا يصغون ولا يلتفتون الا للحواشي التي تحيط بهم

فقال بولس — ولكنني الجأ الى احد هؤلاء الكبار فيحميني لدى الملك ويقربني منه

فقال الشيخ — اذا رمتَ ان يحميك الكبار وجب عليك ان تخدم اطماعهم وتمدح اهواءهم · وانت عاجز عن ذلك لانك شاب ابي النفس مستقيم

فقال بولس — ولكني ابذل جهدي لانال ثقتهم · فانني اكون شجاعاً في الحرب جريئاً في السلم اميناً حافظاً لكلامي ثابتاً في صداقتي قائماً بواجباتي · فلا بدَّ ان يلتفت اليَّ بعد ذلك احد منهم ويحميني ويمهد لي سبيل الظهور في العالم كما كان يصنع المتقدمون على ما قراته في الكتب التي اخذتها منك

فقال الشيخ — يا صديقي · لقد كان اليونان والرومان يحترمون الفضيلة ويحمونها

حتى في دور انحطاطهم لانهم كانوا يحبونها · اما نحن فاننا لا نعبأ بها · وانني اعرف كثيرين من رجالنا العظام نبغوا في كل فن وعلم ولست ارى واحداً منهم قد تقدم وارتقى بمساعدة احدى العيال الكبيرة عندنا · فدع الكبار وشانهم لانهم لا يهتمون الا بانفسهم ولا قيمة لغير الذهب عندهم (١)

فقال بولس — اذاً انا اترك الكبار وانضم الى احدى الدوائر او الى رجال الاعمال والاموال

فقال الشيخ — حينئذ يجب عليك ان تصنع صنعهم فتدوس الضمير والواجب لجمع الثروة والمال

فقال بولس — كلا ثم كلا لانني لا اطلب الا الحق ولا اعمل الا بالواجب

فقال الشيخ — فحينئذ يبغضونك بدلاً من ان يساعدوك لان الناس قلما يهمهم الحق ولا يبغون الا قضاء اغراضهم

فقال بولس — ما اشد تعاستي اذاً · فان كل شيء ينبذني في هذا العالم · فرجيني تركتني والناس لا يساعدونني

فقال الشيخ — يابنيَّ لا تتخذ لك مساعداً غير الله ولا تطمع في خدمة احد غير الانسانية · فان لكل فريق من الشعوب والملوك والعيال والدوائر اوهاماً وترهات · فاذا اردتَ خدمتهم وجب عليك احياناً ارتكاب الرذائل ارضاء لهم · اما الله والانسانية فلا يطلبان منك غير الفضائل (٢)

« ولكن ما الذي يوجب عليك طلب الامتياز عن باقي الناس يا بنيَّ · ان هذا الطلب مناقض للاميال الطبيعية لانه لو عمَّ لاصبحت الارض ميداناً للخصام والنزاع بين الناس · فانبذ هذه الاوهام وارضَ بحالتك لانك فتى ذو ضمير حر لا تجعل سعادتك متوقفة على آراء الصغار فيك كما يصنع الكبار ولا تزحف تحت اقدام الكبار طلباً للرزق · وانت الآن والحمد لله في بلاد لا تحوجك المعيشة فيها الى غش الناس والحط من كرامتك لديهم وارتكاب المحرم معهم رغبة في جمع المال · فانك في حالة تتيح لك ممارسة كل الفضائل

---

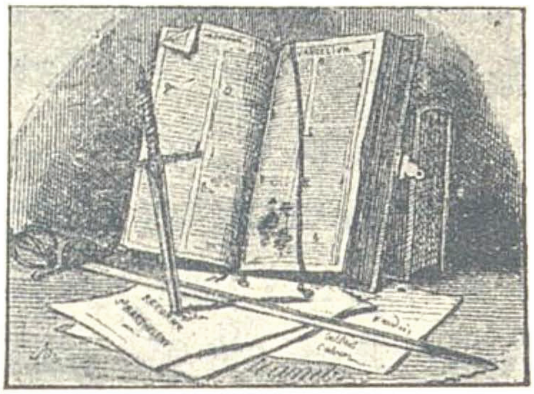
١) قيمة الفضيلة والعلم والادب في العالم · وقد عربنا هذا الفصل باسهاب حرصاً على ما فيه من الفوائد الفلسفية والادبية التي نوجه اليها خاصةً انظار القراء

٢) الاقتصار على خدمة الله والانسانية

فتقدر ان تكون كريماً مخلصاً مهذباً مقتصداً معتدلاً عفيفاً نقياً حليماً محباً للحقيقة والحق دون ان تُرشق بسهام التهكم لالتزامك هذه الفضائل · وقد منحتك السماء صحة في الجسم والعقل وحرية وضميراً حياً واصدقاء · فماذا تريد اكثر من هذا · ان الملوك الذين تبغي التقرب منهم التماساً لنعمهم ليسوا بسعداء الى هذا الحد

فقال بولس — آه ولكن تنقصني فرجيني · فانني معها املك كل شيء وبدونها اكون كمن لا يملك شيئاً · وبما انني لا استطيع الحصول على الثروة بوسائط شريفة للوصول الى فرجيني فانا اطلبها من طريق العلم والادب · فان الانسان لا يضطر في هذه الطريق الى دناءة وضعة · فماذا تقول اذا درستُ وألفت وخدمت وطني بالعلم لابلغ به اسمى قمم المجد والفخر فاستحق حينئذ فرجيني

فقال الشيخ — ان المواهب العقلية يابني (١) اندر من الثروة والجاه في هذه الحياة · وهي افضل منهما لانها لا تزول عن صاحبها · ولكنها لا تُكتسب الا بجهد شديد وقهر النفس ونبذ الملاذ · وفضلاً عن ذلك فانها تجلب معها احساساً شديداً يجعلنا تعساء في الباطن لنتأثرنا من كل شيء ويجاب لنا في الخارج عداوة الناس واضطهادهم · ومع ذلك فماذا يرجو الناس من النفع بواسطة الكتب · هل رايتَ في الكتب كتاباً كالانجيل يدعو البشر الى المساواة والصداقة والاخاء والسلام والدعة · ومع ذلك فان هذا الكتاب بقي مدة قرون منشئاً للخلاف بين



الانجيل والسيف

البشر وسبباً للنزاع · فكم من ظلامة حدثت باسمه في العالم ولا تزال تحدث الى الآن · فقل لي بعد هذا مَنْ من الناس يرجو نفع الناس بكتاب · ثم الا تذكر ما اصاب جميع الفلاسفة

(١) المواهب العقلية وحظ الحكمة والحكماء في العالم

الذين دعوا الناس الى الحكمة · فان هوميروس الذي كساها اياتاً في غاية الجمال كان شحاذاً يطلب الصدقة في زمانه · وسقراط الذي القى على الاثينيين دروساً جميلة ببلاغته وبقدوته جُرع السم من ايديهم بحكم قانوني · وتلميذه العظيم افلاطون بِيع بَيع الرقيق بامر من الامير الذي كان يحميه · وفيثاغورس الذي كان قبلهم يطلق الانسانية حتى على الحيوانات احرقه الكرتونياتيون وهو في قيد الحياة · فمن ذلك يتضح لك ان بلوغ المجد العلمي والادبي يستوجب الفضيلة اولاً والاستعداد لتضحية النفس ثانياً · ولكن هل تظن ان الاغنياء والكبار يعبئون بالعلم والادب · كلا لا تنكر بذلك · فانهم لا يعبئون الا بالذهب · ولكن مع انهم لا يهتمون بذلك فان صناعة الادب صناعة مقدسة وهي جديرة بالمصدر السماوي الذي صدرت عنه · واعظم شرف للانسان على هذه الارض هو ان يكتب كتاباً لانه به ينير عقول الشعوب و يعزى الحزانى ويخفف احمال المتعبين · واي رجل لا يضرب صفحاً عن مصائب الحياة ولا يستخف متاعبها اذا كان يعلم ان كتابه سينتقل من قرن الى قرن ومن جيل الى جيل كمصباح ينير الظلمات وحاجز يصدّ الضلال وانه من المكان الصغير الذي عاش فيه يخرج مجد باهرٌ يمحو مجد كثيرين من الملوك الذين تفنى آثارهم وتُنسى التماثيل التي اقامها لهم المتزلفون اليهم مع ان آثار ذلك الكاتب لا تزول

فقال بولس — آه · انني لا اطلب هذا المجد الا لارجعه الى فرجيني واكسوها اياه · ولكن بما انك ترى انه لا سبيل الى الوظائف والشرف في العالم الا من طريق المال وان الناس لا يحترمون شيئاً غير الذهب فما قولك في ان اسافر الى بنغال للاتجار وجمع الثروة فيها · هاءنذا مسافر

فقال الشيخ — وهل تترك امك وام فرجيني وحدهما يا بني

فقال بولس — ولماذا شجعتني قبلاً على السفر الى هناك

فقال الشيخ — لما شجعتك على السفر كانت فرجيني هنا تقوم مقامك

فقال بولس — ان عمة فرجيني الغنية تساعد امها بمالها فيستغنون عني

فقال الشيخ — ان الاغنياء يا بني لا يساعدون احداً غير الذين يتزلفون اليهم وتكون مساعدتهم مما يكسبهم الشهرة بين الناس

فقال بولس — ما اشقى اوربا واتعسها · فما هذه الاخلاق والعادات ؟ ولماذا ذهبت فرجيني اليها · بالله اصدقني يا ابتاه هل انها تبقى ثابتة على حبي بعد اقامتها في بلاد كتلك البلاد

فقال الشيخ — لا ريب عندي يا بني انها تبقى ثابتة في حبك لانها فتاة فاضلة ·

فانطرح بولس حينئذ على عنقي وقبلني ثم قال

— هل تظن يا ابتِ (١) ان نساء اوربا محتالات كما ورد عنهن في الروايات

فقال الشيخ — يابني ان النساء يكنّ محتالات في كل مكان يكون فيه الرجال ظلمة عتاة لان الاحتيال والرياء ينشئان عن الضغط دائماً

فقال بولس — وكيف يكون الرجال ظالمين للنساء

فقال الشيخ — يكون ذلك بتزويجهنّ من غير استشارتهن · فيزوجون الفتاة مثلاً بشيخ والمراة النبيهة الحساسة برجل خامل

فقال بولس — ولماذا لا يزوجون الفتى بالفتاة والكهل بمن تماثله من النساء

فقال الشيخ — ذلك لان الرجال لا يتزوجون الا متى جمعوا مالاً ولا يجمعون المال الا في سن الكهولة

فقال بولس — وما حاجة الناس في الزواج الى الثروة والمال

فقال الشيخ — ليقدروا على صرف ايامهم في السعة والبطالة

فقال بولس — ولماذا لا يشتغلون ولا يعملون شيئاً · فانني انا اشتغل واعمل

فقال الشيخ — ذلك لانهم يحتقرون عمل اليد (٢) خصوصاً الفلاحة · ولذلك يحترمون الصانع اكثر من الزارع

فقال بولس — ماذا تقول ؟ وهل في الناس من يحتقر الفنّ الذي يغذي الناس ويطعمهم · لم افهم شيئاً من كلامك

فقال الشيخ — لا استغرب ان لا تفهم شيئاً من كلامي لان من ربي مثلك في الطبيعة لا يدرك مفاسد الاجتماع

فقال بولس — ومع ذلك فان الاغنياء (٣) يكونون سعداء لانهم يدركون كل ما يتمنونه ولا ينقصهم شيء

فقال الشيخ — اخطأت يا بني فان الانسان متى ألف الملاذ والمسرات لم تبقَ لها قيمة عنده · ولذلك ترى ان الاغنياء لا يجدون في ملاذهم من اللذة نصف ما يجده الفقير في

---

١) الرجال والنساء والزواج ٢) احتقار الزراعة ٣) الاغنياء والفقراء

وملاذه منها . وقد يشمون الف وردة ووردة دون ان يهتموا لها ولكن شوكة واحدة تبقي اثرًا بليغًا في نفوسهم . وبناء عليه فان حزن الغني في وسط مسراته وملاذه انما هو عبارة عن شوكة بين الازهار . وسرور الفقير في وسط احزانه عبارة عن زهرة بين الاشواك . ولذلك تؤثر اللذة في الفقير مهما كانت ضعيفة اشدّ من تاثيرها في الغني . وفضلاً عن هذا فايهما اولى للانسان : ان يكون في خوف دائم مما يحدث دون ان يكون له امل في شيء مقبل . ام ان يكون لا يخاف شيئًا مما يحدث ولا يملك شيئًا غير الامل في المستقبل . فان الحالة الاولى حالة الغني والحالة الثانية حالة الفقير . ولكن كلتا الحالتين في رايي طرفان . وما السعادة الا وسط بينهما وهي السعة القليلة والفضيلة

فقال بولس — ماذا تريد بالفضيلة وما تعريفها عندك (١)

فقال الشيخ — لستَ في حاجة الى تعريف الفضيلة يابني لانك تمارسها في كل يوم وذلك بانك تساعد اهلك بعملك . ومع ذلك فانا اعرّفها لك : ان الفضيلة هي مغالبة الانسان نفسه لاجبارها على صنع الخير للغير من اجل الله وحده لا من اجل مكافأة من الناس

فصاح بولس — اذًا ما المع فضيلة فرجيني . فانها لم تسافر من هذه الجزيرة الا من اجل الفضيلة فلا ريب ان الفضيلة ستعيدها اليها

وعلى ذلك فقد كان افتكاره في عودتها يثير تصوراته واحلامه دائمًا وكان شاغلاً لباله في الليل والنهار . وكان احيانًا يعاوده الامل فيقول ان السبب في انقطاع اخبارها عن اهلها هو انها ركبت احدى السفن عائدة الينا . وحينئذ كان يفرح فرحًا شديدًا ويمني نفسه بالاقتران بها قريبًا . واحيانًا كان اليأس يتغلب على نفسه فياتيني ذليلاً صاغرًا ويقول : ان فرجيني قد نستني لان عمتها ازوجتها باحد اكابر البلاط فاضاعها حبها للثروة والجاه ودلت بذلك على انها بلا فضيلة . اذ لو كانت ذات فضيلة لما تركت امها وتركتني . ومع ذلك فالفضيلة في هذه الحياة لا تصلح الا لانشاء الروايات . فماذا اصنع انا . انني سئمت كل شيء ولم يعد لي جلد على العمل ولا صبر على المعاشرة والكلام . آه ليت الحرب تدور رحاها في الهند لاذهب واموت فيها

فكنت اقول له : تأنَّ يابني . فان الشجاعة التي تسهل لنا اقتحام الموت انما هي شجاعة

---

(١) تعريف الفضيلة تعريفًا بسيطًا جميلاً

ساعة ثم تزول. وربما كان منبها التماس استحسان الناس واعجابهم(١) وانما الشجاعة الحقيقية هي تلك التي تجعلنا نحتمل متاعب الحياة اليومية من غير ان يكون هنالك احد يشهدها او مثنٍ يثني عليها . فاحتمل متاعبك بجلدٍ وصبرٍ اذا كنت تحب ان تكون شجاعاً حقيقياً. فان الصبر والجلد هما شجاعة الفضيلة

فقال بولس — اذا كان هذا هكذا فلست اذاً بذي فضيلة. آه انني خسرت كل شيء في هذه الحياة

فقلت له : لا تيأس سريعاً فان الفضيلة ليست من ملازمات الانسان لان اختلاف العواطف والاهواء في العالم واحتكاكها يلقي الانسان في اضطراب دائم ويسدل على عقله حجباً من الظلام . ولذلك يجب عليه ان يستنير دائماً من المنائر التي يبدد نورها هذا الظلام : واريدبها منائر الآداب اي كتب الادب (١)

« فالاداب يا بني عون الهي وهي اشعة من الحكمة الرائعة التي تحكم العالم. والانسان لم يتعلم استنزالها الى الارض الا بوحي او شبه وحي سماوي . وهي شبيهة باشعة الشمس من حيث انها تنير وتسرّ وتبث الحرارة في النفس . وحرارتها حرارة الهية . ومن خواصها انها تسكّن الشهوات وتكبح جماح الرذائل وتهيء النفس لقبول الفضيلة بما تبسطه امامها من امثلة افاضل الناس الذين تذكر حوادثهم . فكانها طائفة من بنات السماء ينزلن الى الارض ليطردن هموم الجنس البشري ويسلينه في متاعبه . واذا نظرتَ الى اعاظم الكتاب الذين نبغوا في العالم وجدت انهم لم ينبغوا الا حين الحاجة اليهم والى مبادئهم وان الزمن الذي نبغوا فيه كان اشد الازمان على مواطنيهم . فكانهم يُرسلون خاصةً لانارة بني جنسهم وتبديد همومهم . فاقرأ يا بني . اقرأ وطالع فان الحكماء الذين كتبوا الكتب قبلنا انما هم مسافرون تقدمونا في طريق المصائب وهم يمدون بكتبهم ايديهم الينا لمساعدتنا في طريقنا حين يكون جميع الناس قد تركونا وتخلوا عنا

فقال بولس — لست في حاجة الى المطالعة اذا كانت فرجيني بجانبي فان رؤيتها تطرد كل هم وكل غم عني

فاجبته : اصبتَ في هذا فان الانسان لا يرتاح الى احد ارتياحه الى حبيبة تحبه . لان في المرأة روحاً خفيفاً يطرد همّ الانسان وغمه وفي وجهها معانٍ لطيفة تزيل

---

١) الشجاعة الحقيقية ٢)منائر الادب وظهور نوابغ الكتّاب

من جبينه كل تجعد وتامل وفي جبهتها من لوائح الثقة والاستسلام ما يدعو الى كل ثقة واستسلام(١)واية جبهة تبقى متجعدة لدى ابتسامها؟واي غضب يثبت لدى دموعها؟ ولكن فرجيني ستعود قريباً وهي ارق مما كانت يوم سفرها . فماذا تقول لها اذا شاهدت الحديقة مهملة . فشمر عن ساعديك واصرف اوقاتك في اصلاحها

١٨

العودة

فبناء على هذا القول عاود الامل بولس فصار يصلح الحديقة استعداداً لعودة فرجيني. وفي ذات يوم (وذلك في ٢٤ دسمبر سنة ١٧٤٤) نهض بولس من فراشه صباحاً فابصر على جبل « الاكتشاف » علماً منصوباً وهي علامة قدوم احدى السفن . فاسرع كالبرق الخاطف الى الميناء ليسال عن كتاب من فرجيني . ولما وصل الى الميناء وجد ان دليل تلك السفينة قد نزل في زورق الى البر وابلغ اولي الشان انها قادمة من فرنسا واسمها



بولس عائد بالكتاب

« سان جيران » ومحمولها ٧٠٠ طن واسم ربانها المسيو او بين . وانها واقفة على خمسة فراسخ من الشاطئ ولا ترسو في الميناء الا في ظهر اليوم التالي اذا وافقها الريح . ثم ان الدليل دفع الى الحاكم رزمة المراسلات التي جاءت بها السفينة من فرنسا. وكان في جملة هذه الرسائل

---

١) قال سنت بوف ان برناردين شرّف المراة ونفى عنها كثيراً من التهم بهذا التعريف البسيط الجميل لان غيره يعرفها بانها مخلوق طائش خفيف العقل

رسالة باسم « مدام دي لاتور » . فلما وقع عليها نظر بولس عرف خط فرجيني من عنوانها . فطار قلبه فرحاً . فتناول الرسالة بسرعة البرق وقبّلها وضمها الى صدره ثم انطلق كالريح عائداً الى المنزل . وكانت العائلة تنتظره حينئذ على صخرة « الوداع » فلما صار بولس على مقربة منها رفع الكتاب بيده ليريها اياه واشتد عدوه ليصل اليها . ولما وصل اخذت الكتاب بسرور شديد واجتمعت في كوخ مدام دي لاتور . ثم فضت ختامه وقرأته فوجدته مؤرخاً من سفينة سان جيران نفسها . ذلك ان فرجينى كانت قد حضرت في تلك السفينة . وقد قالت في هذا الكتاب ان عمتها اقترحت عليها الاقتران بسيد من اكابر البلاط فرفضت فقالت لها انها فتاة افسدت مطالعة الروايات عقلها ثم طردتها من قصرها ولم تمهلها ان ينقضي فصل الزوابع والعواصف بل اضطرتها الى السفر في الحال . الا ان ربان السفينة لم يتركها تنزل في زورق الدليل حين وصولهم الى الجزيرة خوفاً عليها من الامواج ولذلك بقيت في السفينة الى اليوم التالي

فلما قرأت العائلتان هذا الكتاب فرحوا فرحاً ما عليه من مزيد واخذوا يتعانقون ويهنئون بعضهم بعضاً . ولم يعد يُسمع في الكوخين الا صراخ الجميع « عادت فرجينى . عادت فرجينى » اما بولس فانه كان في هذيان شديد من الفرح . ثم انه اضرم مشعلاً واصطحب دومنيك وسار معه يقصد كوخي لاطلاعي على ذلك الخبر العظيم

وكانت الساعة نحو العاشرة مساء في ذلك الحين . وكنتُ قد دخلت الى كوخي ابغي الرقاد . فلما رايت النور من خلال اشجار الحرش وسمعت بولس يناديني من بعيد نهضت ولبست ملابسي . ولما وصل بولس الى الكوخ انطرح بين ذراعي قائلاً : لقد عادت فرجيني . فلنذهب الى الميناء لاستقبالها . لان السفينة ترسو فيها عند طلوع الفجر »

فسرتُ معه تحت جنح الظلام نقصد الميناء ونحن في غبطة وسرور . الا اننا لم نسر قليلاً حتى سمعنا وقع اقدام وراءنا فالتفتنا فابصرنا عبداً ضخم الجثة فسالناه الى اين يسير فقال « انني مرسل من جزيرة « تراب الذهب » لابلغ الحاكم ان وراء جزيرة العنبر سفينة راسية وهي تطلق المدافع التماساً للمدد والاعانة لان البحر في هياج شديد »

فقلت لبولس حينئذ هلمَّ بنا الى جزيرة تراب الذهب فان تلك السفينة سفينة فرجيني . غير انني قلقت لهذا الخبر قلقاً شديداً . وكان القمر قد طلع من وراء الافق وحوله ثلاث دوائر سوداء . اما الريح فانها كانت هادئة ومع ذلك فان الغيوم كانت ترد من جهة البحر الى جهة البر بسرعة غريبة وتتكاثف فوق الجزيرة . وبينما كنا سائرين خيل لنا اننا نسمع

صوت الصاعقة ولكننا ما لبثنا ان تحققنا ان ذلك الصوت صوت مدافع السفينة التي كانت في البحر . فارتعدت فرائصي لهذا الصوت المنذر بالخطر بازاء ما كان في السماء من علائم الزوبعة . وبعد نصف ساعة لم نعد نسمع لتلك المدافع صوتاً بل ساد سكوت عميق . غير ان هذا السكوت كان اشد هولاً وادعى الى الخوف من اصوات المدافع التي كانت دليل الاستغاثة

ولما وصلنا الى البحر وجدناه في هياج شديد . وكان الناس مجتمعين على الشاطئ، يتحدثون في امر السفينة . فمنهم من كان يقول ان التيار ساقها الى البر بالرغم عنها فصارت في خطر شديد . ومنهم من زعم انها دخلت في خليج بين البر وجزيرة العنبر الصغيرة لانها ظنته الخليج الذي تمرّ به السفن القادمة الى الجزيرة . ولذلك لم يبقَ امل في انقاذها . ومنهم من كان يضحك من هذه الاشاعات ويقول ان السفينة في امن وسلامة في عرض البحر وانه يراهن على جميع ماله مَنْ شاء مراهنته بهذا الشان ويبيت مستريح البال

اما انا وبولس فقد لزمنا الصمت واقتصرنا على الاصغاء . وكان البحر امامنا مغطى بضباب كثيف لا تنفذه الابصار ولذلك لم نرَ شيئاً سوى خيال بعيد علمنا انه جزيرة العنبر المشار اليها . وفي الساعة السابعة صباحاً سمعنا اصوات الطبول . وكان السبب في ذلك قدوم الحاكم مع شرذمة من الجند والسكان . ولما قدم الحاكم اقام الجند على الشاطئ وامرهم ان يطلقوا بنادقهم طلقة واحدة . فاطاعه الجنود . ولكن بنادقهم لم تنطلق حتى جاوبها صوت مدفع من البحر . فتاملنا حينئذ فراينا خلال الضباب سواري السفينة وكانت قريبة منا حتى اننا كنا نسمع صفير المامور الذي كان يدير حركاتها . ومنذ هذه الساعة صارت السفينة تطلق المدافع بلا انقطاع . فامر الحاكم باضرام نار قوية ليراها رجال السفينة . فاضرم السكان النار . غير ان احدهم دنا منه وقال له : مولاي لقد سمعنا في الجبال في هذه الليلة اصواتاً غريبة . وصارت الاوراق في الاحراش تتحرك مع ان الريح ساكنة . وطيور البحر صارت تفد على الجزيرة وتلجاء اليها . فلا ريب ان الزوبعة قريبة

وفي الحقيقة ان الزوبعة كانت قريبة . فانه لم تاتِ الساعة التاسعة صباحاً حتى سُمعت من جهة البحر اصوات هائلة كاصوات امواج نهر عظيم تنصبّ من جبال شامخة . فصاح جميع الحاضرين « اليكم الزوبعة . اليكم الزوبعة » . وفي الوقت ذاته كنست ريح عاتية الضباب الذي كان بين الجزيرة وجزيرة العنبر . فانجلت حينئذ سفينة « سان جيران » للابصار وعليها المسافرون يغصّ بهم ظهرها . وكانت راسية بين البر وجزيرة العنبر في

خليج لم تدخل اليه سفينة قبلها وهي واقفة على خمس مراس اربع في مقدمها وواحدة في مؤخرها . وكان مقدمها موجهاً الى الامواج في عرض البحر فكانت كما صدمتها الامواج ارتفعت السفينة حتى يظهر اسفلها ثم تنحدر بعد مرور الموج فيختفي جسمها هنيهة في انحدارها. وهكذا كانت الريح والامواج تدفعها الى الشاطئ بالرغم عنها .وكان الجميع يخشون من امر واحد وهو انقطاع المراسي التي في المقدم . فلم يلبث هذا الخوف ان تحقق لشدة البحر وقوة الريح . ولما انقطعت تلك المراسي ولم تبقَ السفينة مرتبطة بغير المرساة التي في مؤخرها دفعها الموج دفعاً شديداً الى الصخور . فصرخ جميع الحاضرين حينئذ صرخة واحدة . اما بولس فانه همَّ بان يلقي نفسه في البحر . فامسكته وقلت له : صبراً يا بنيَّ والا لقيت الهلاك. فاجابني اريد ان اموت او ان اذهب لاعانتها . وكان قد عاوده الغضب واليأس . فربطته انا ودومنيك بحبل من وسطه وابقينا طرف الحبل بايدينا ثم اذنت له بالنزول الى البحر . فخاض بولس البحر وهو تارة يسبح وتارة يمشي على الصخور حتى كاد يقرب من السفينة . ذلك لان الامواج كانت تصدم السفينة على الشاطئ ثم تنجزر عنها فيظهر القعر من تحتها فتبقى السفينة كانها تقريباً على يابسة لا على ماء . غير ان الامواج كانت تعود اليها بنشاط اشد وقوة اعظم فتدفع المسكين بولس عن السفينة مسافة بعيدة . فاصيب بولس بجروح عديدة في فخذيه ويديه من جراء السقوط على الصخور والتدحرج بين الامواج . وكاد احياناً يغمى عليه من التعب والالم . الا انه لم يكن يسترد قواه حتى ينهض ويحاول الوصول ثانية الى السفينة

ولما قذفت الامواج السفينة على الشاطئ قطع البحارة والربان الامل في انقاذها . ولذلك صار المسافرون يلقون بانفسهم الى البحر ليخلصوا سباحةً الى البرّ . واخذ البحارة يلقون في البحر البراميل والموائد والواح الخشب واقفاص الدجاج ليسبح المسافرون عليها ويستعينوا بها . فلم تمضِ على ذلك برهةٌ حتى فرغ ظهر السفينة وخلا من المسافرين . وحينئذ بدا فيه منظر يستدرّ الدموع . فانه ظهر في رواق السفينة فتاة كانها ملاك سماوي وهي تمدّ يديها الى البحر نحو الفتى بولس الذي كان يحاول الوصول اليها . وكانت هذه الفتاة فرجيني نفسها . فانقبضت صدور الجمع الواقف على الشاطئ لهذا المنظر وارتعدت فرائصهم من خوفهم على تلك الفتاة . اما فرجيني فانها كانت تسلّم علينا بيديها فكانها كانت تودعنا الوداع الابدي . وكان جميع البحارة قد القوا بانفسهم الى البحر ولم يبقَ في السفينة غير بحار واحد . وكان هذا البحار عارياً من لباسه وهو ضخم الجثة طويل القامة كانه هرقل .

فدنا من فرجيني باحترام وجثا على ركبتيه امامها وسالها ان تخلع ملابسها ليوصلها سباحة الى الى البرّ . اما فرجيني فانها حوّلت نظرها بعظمة و رقة عن جسمه العاري وابعدته عنها . فيالحياء العذارى وطهارة عواطفهن . لقد ابت خلع ملابسها امام رجل حفظاً للطهارة وان كان في ذلك حتفها . وحينئذ اخذ الجمع الواقف على الشاطىء يصيح من كل جانب « خلصها خلصها » . فرام البحار ان يعود اليها ولكنه نظر في تلك الساعة منظرًا هائلاً

ذلك ان موجة هائلة كانها طود شامخ دخلت في هذا الحين في الخليج بين البرّ وجزيرة العنبر واتجهت نحو السفينة بهياج شديد لتهددها بقايها رأساً على عقب وتكسيرها تكسيرًا . فلما رأى البحار هذا الخطر الهائل التى نفسه وحده في البحر ونجا بنفسه . اما فرجيني فانها ايقنت حينئذ بدنو الاجل . فوضعت احدى يديها على ملابسها والاخرى على قلبها ثم رفعت عينيها الى السماء بهدوء وثبات جاش ولبثت تنتظر وصول الموجة . فاشبهت بذلك ملاكاً يطير من هذا العالم الى العالم الثاني



فاشبهت بذلك ملاكاً يطير من هذا العالم الى العالم الثاني

فيا لك من يوم هائل حدث فيه حادث هائل . والوعتاه . ان البحر ابتلع كل شيء بعد مرور الموجة . ولم يعد يظهر اثر لفرجيني ولا للسفينة . اما الواقفون على الشاطىء فانهم اندفعوا الى البحر بالرغم عنهم كانهم راموا انقاذ الفتاة المسكينة . فدفعتهم بقايا الموجة عن الشاطىء مسافة بعيدة . واما البحار فانه خرج وهو يقول « وددت لو بذلت حياتي في سبيل انقاذ تلك الفتاة التي ابت النجاة فرارًا من خلع ملابسها » اما انا ودومنيك فاننا انتشلنا بولس المسكين

من البحر وهو مغمى عليه والدم يجري من فمه واذنيه · فارسله الحاكم الى بعض الجراحين لمداواته · ثم رحنا نجول على الشاطئ لعل الامواج تدفع اليه جثة فرجيني · وكنا في حالة من الحزن يكل القلم عن وصفها· وصار اكثرنا يرتاب في وجود العناية الالهية بعد ما اصاب تلك الفتاة الصالحة · ذلك لان في مصائب الحياة مصائب تقع على غير مستحقيها فيزعزع وقوعها ثقة الحكيم مهما كانت ثقته عظيمة

ولما لم نجد جثة فرجيني على الشاطئ عدت مع دومنيك الى المنزل لاهيئ ام فرجيني لاستماع هذا الخبر · اما بولس فانه اخذ ينتبه من اغمائه فوضعه الاطباء في غرفة قريبة من الشاطئ · وحين وصولنا الى وادٍ هناك اخبرنا بعض العبيد ان البحر يقذف الى الشاطئ شيئًا كثيرًا من آثار السفينة في ميناء قريب ·فهرعنا الى هذا الميناء فوجدنا فيه جثة فتاة مدفون نصفها في الرمل · فتاملنا الجثة فوجدناها جثة فرجيني نفسها · فيا لذلك المنظر اللطيف والمريع معًا · فان عينيها كانتا مطبقتين كانها نائمة وملامح وجهها لم تتغير قط ·



نائمة نومًا ابديًا

ودلائل الهدوء والارتياح الباطني كانت مرسومة على جبينها · وانما كان على وجهها صفرة الموت تمازج حمرة الحياء · وكانت احدى يديها مضغوطة على ثيابها والاخرى على قلبها · فرفعتُ هذه اليد لانها كانت شديدة اليبس والضغط فوجدت تحتها صورة القديس بولس· فبكيت حينئذ بما في عينيَّ من الدموع لثبات حب هذه الفتاة لانني تذكرت انها وعدت بولس بانها تحفظ هذه الصورة الى آخر نسمة من حياتها · اما دومنيك فان عويله بلغ العنان· وكان يلطم نفسه و يبكي بكاءً مرًّا ·ثم اننا نقلنا هذه الجثة الى احد اكواخ الصيادين وعهدنا بغسلها الى بعض النساء الوطنيات

و بينما كان النساء مشتغلات بذلك صعدتُ الى الكوخين لمقابلة ام بولس وام فرجيني·

فلما رأتني هذه وحدي صاحت بخوف « اين ابنتي اين ابنتي » فبكيت وسكت لانني لم اجد جواباً . فلما رأت دموعي تحققت وقوع المصيبة فصاحت صيحة اليمة وسقطت مغمى عليها . وكانت تلك الليلة في الكوخين ليلة هائلة

اما بولس فقد جاء به في صباح اليوم التالي بعض الرجال يحملونه على محمل . وكانت حواسه قد عادت اليه الا انه لم يكن يقدر على النطق . فلما قابل ام فرجيني وامه اغرق الجميع في البكاء . ولكن سحنة هاتين الامين التعيستين استنارت برهة عند رؤية بولس كانهما تذكرتا انهما لم يفقدا الا نصف آمالهما وقد بقي لهما النصف الآخر . وفي خلال هذا الوقت كان الحاكم يحتفل بجنازة فرجيني المسكينة . وقد كتم ذلك عن اهلها وعن بولس . اما هذا الاحتفال فلم يسبق له مثيل في الجزيرة . فان جميع السكان قاموا قومة واحدة لاكرام الفضيلة في جثة هذه الابنة التعيسة . فسار الجند امام نعشها منكسي السلاح ومشت امامها بنات الجزيرة بملابس بيضاء وسار الشعب وراءها وفي جملتهم فقراء الجزيرة وضعفاؤها يندبون ملاذ الضعف والفقر ويبكون بكاء شديداً

وبعد حفلة الجنازة صعد الحاكم الى الكوخين ليعزي الامين . ولما شاهد بولس في حالة الذهول والضعف قال له « انني راغب في خيرك وخير عائلتك . فسافر يا بني الى فرنسا وانا اوصي بك خيراً » ثم مدّ يده اليه . فجذب بولس يده من يده وصرف وجهه عنه دون ان ينطق بكلمة

١٩

بعد الزوبعة

وبعد ثلاثة اسابيع صار بولس قادراً على المشي . الا انه لم يكن يهتم لشيء مما حوله ولم يكن يعباء بحنو ام فرجيني وامه ولا يجاوب عن الاسئلة التي كانوا يلقونها عليه . وكان الحزن قد اضعف مدام دي لاتور حتى الموت . ففي ذات يوم قالت له « كلما نظرتك يابني خيل لي انني ارى فرجيني » فلما وقع اسم فرجيني في اذن بولس اجفل وفرّ بعيداً من مدام دي لاتور . ثم ذهب الى النبع وجلس تحت نرجيلة فرجيني شارد الفكر مبهوتاً . وقد اوصانا الطبيب بان لا نعارضه في شيء ولا نمنعه من شيء بل ان نجاريه في كل ما يرومه طرداً لهذا الذهول . فاطعنا الطبيب ولذلك لزمتُ بولس فكنت اتبع له من ظله . وفي ذات يوم رايته خرج من الحديقة فتبعته من بعيد . فظل سائراً حتى انتهى الى الكنيسة

ولما وصل اليها ذهب الى ظل شجرة كان التراب تحتها رطباً لانه كان محفوراً منذ بضعة ايام · ثم جثا هنالك يصلي · فاقشعر جلدي حينما رايته يصلي في ذلك المكان لان فرجيني دُفنت فيه تحت تلك الشجرة · و بعد حين غادر المكان واوغل في الجبل · فسالته « لماذا صليتَ يابولس تحت هذه الشجرة » فاجاب « كنت استظل بها معها كثيراً »

وما زال متوغلاً في الحرش حتى اشرف على الميناء · فحينئذ اسرع في السير ونزل الى الشاطيء · ولما وقع نظره على جزيرة العنبر وراى هدوء البحر حولها صرخ بغتة « فرجيني ياعزيزتي فرجيني » ثم انطرح على الارض يبكي بكاءً مرّاً

وقد اقام اياماً عديدة على هذه المعيشة وهو يتنقل من مكان الى مكان دون ان يستقر في مكان · فضعف جسمه واصفرَّ لونه وغارت عيناه حتى صار في حال يُرثى لها · فخطر لي ان ابعده عن تلك الاماكن التي كانت تذكره اخته التعيسة لعله يجد شيئاً من السلوى · فكنت اوغل معه في الاحراش والجبال ثم اساله الى اين نذهب الآن · فكان يجيبني : هذه جبالنا فلنعد اليها

فلما اعيتني الحيل من هذا الوجه رأيت محاربة حزنه من وجه آخر · فدفعت اليه في ذات يوم صورة القديس بولس التي وجدتها في قبضة فرجيني يوم غرقها · فلما رآها بدا في عينيه سرور غريب ثم تناول الصورة وضمها الى صدره وصار يقبلها ويبكي · فابتدأتُ حينئذ اعزّيه بالكلام التالي

« نعم يابني هذه هي الصورة التي وجدناها في قبضة فرجيني يوم غرقها · وذلك يدلك على انها حفظت حبك وافتكرت بك الى آخر نسمة من حياتها · ولكن قل لي يا بني ماذا تبكي الآن · وهل تبكي نفسك ام تبكيها

« فان كنت تبكي نفسك فانا لا اجهل ان مصيبتك عظيمة لانك خسرت الابنة التي هي اكثر البنات لطفاً وصلاحاً ولو بقيتْ في قيد الحياة لكانت اكثر الزوجات اخلاصاً · ولكن من ادراك ان هذه الفتاة التي كنتَ تنتظر سعادتك منها لا تكون سبباً في تعاستك وتعاستها معاً لو بقيتْ في قيد الحياة · فانك فتى فقير وهي فقيرة وامك وامها دخلتا في سن العجز فلو اقترنتَ بها و رزقتما البنين لعشتم جميعاً في الفقر والتعب والتعاسة · فاقبل يا بني ما يُرسله الله ولا تعارض في احكام الله

« وان كنتَ تبكيها لانها لا تستحق المصيبة التي وقعتْ فيها فاعلم يا بني انها خضعت للناموس الذي يشمل جميع الكائنات في هذا العالم حتى الممالك والدول · فان حياة الانسان انما

هي عبارة عن منزل يُبنى شيئاً فشيئاً والموت سقفه و به تمامه وكماله . وكل حي يولد للموت .
وقد كانت فرجيني سعيدة لانها ماتت قبلك وقبل امها واهلها . اي انها ماتت دون ان
تموت عدة مرات قبل المرة الاخيرة

« ثم فاعلم يا بني ان الموت خير وراحة لجميع الناس . ذلك لانه ليل هذا النهار المملوء
بالمتاعب والاحزان والذي يسمونه حياة . فبالموت تستريح نفس الانسان وتسكن كل
الآلام والامراض والاحزان والمخاوف التي تعذب هؤلاء الاحياء المساكين بلا انقطاع .
سلْ عن الناس الذين تراهم في نجاح وسعادة في هذه الدنيا فانك تجدهم ابتاعوا سعادتهم
المزعومة بثمن غالٍ جداً : فانهم لم يحصّلوا الوجاهة في الدولة الا ببذل شيء من
الشرف العائلي ولم يحصّلوا المال الا بخسارة صحتهم او دوس ضميرهم واذية بني جنسهم ولم
يكونوا محبوبين الى الناس الا بانكارهم ذواتهم وتضحية كثير من مصالحهم . وفي
الغالب بعد حياةٍ صُرفت في خدمة الغير واسترضاء الناس وانكار الذات لا يجد الانسان
حوله في آخر العمر الا اصدقاء كاذبين واهلاً ناكرين للجميل . واما فرجيني فانها لم تعرف
هذه المفاسد الاجتماعية لانها كانت سعيدة من اول حياتها الى آخرها . وقد كملتْ
سعادتها بالشجاعة التي اظهرتها في ساعة الموت وهي النعمة التي يهبها الله للفضلاء جائزة للفضيلة

« ومع ذلك فان فرجيني لا تزال حيّة يا بني . انظر الى العالم تجد ان كل شيء فيه
يتغير ولا يفنى . وليس في الارض كلها قوة قادرة على ملاشاة ذرة من ذرات المادة بل هي
تغيرها تغييراً فقط من صورة الى صورة اخرى . فكيف ان المادة الحقيرة لا تتلاشى ابداً .
والروح التي كانت مصدراً للحب والفضيلة والتقوى والحس اللطيف يكون نصيبها التلاشي
والفناء ؟ فثق اذاً ان فرجيني حية في العالم الثاني وانها فيه اسعد مما كانت في هذا العالم .
ذلك ان الله موجود يا بنيَّ وكل شيء في الطبيعة يدلُّ عليه ويشير اليه . ولست في حاجة
لان اقيم لك دليلاً على وجوده اذ لا ينكره احد غير الارديا الذين يخافون عدله . فهل
تظن ان هذا الاله القادر يترك فرجيني الفاضلة بلا جزاء حسن . كلا ولو كنتَ الآن
قادراً على سماع صوت فرجيني من مكانها الابدي لسمعتها تقول : « يا اخي بولس . ليست
الحياة سوى تجربة . وقد جُربتُ فعملتُ بناموس الطبيعة والفضيلة والحب . ولذلك
جزتُ البحار طاعةً لاهلي ثم عدلتُ عن طلب الثروة حفظاً لفضيلة نفسي . وقد فضلتُ
الموت غرقاً على خرق حرمة الحياء بخلع ملابسي . فحينئذ راى الله ان حياتي صارت كافية
كاملة فاخذني اليه . وبذلك صرتُ في مأمن من الفقر والنميمة والزوابع ومنظر شقاء الغير .

ولم يعد يصل اليَّ شيءٌ من المصائب التي تعذب الناس : فكيف يجوز لك البكاء عليَّ بعد هذا النعيم الذي صرتُ اليه . لقد اصبحتُ نقيةً صافية كذرةٍ من النور في الفضاء : فعلامَ تدعوني للهبوط الى ظلام الحياة . يا اخي بولس . ان ما ذقته معك من السعادة والهناء في الارض ليس الا جزءًا من السعادة والهناء اللذين يذوقهما القادمون الى هذا المكان . فانني هنا قريبة من مصدر تلك السعادة ونبعها الاعلى . وانا اذوقها بحواسٍ كاملة لا بحواس ناقصة كما كنتُ في الارض . فسكن حزنك يابولس . يازوجي الصغير . يا من ساذوق معه هنا السعادة كاملة . وارفعْ نفسك عن الارض لتحتمل متاعب الحياة الوقتية »

وكان الانفعال لهذا الكلام قد بلغ مني مبلغه فسكتُ حينئذ دامي القلب . اما بولس فانه حدَّق فيَّ وقال : « لقد ذهبتْ لقد ذهبتْ » ثم اصيبَ بضعف شديد . ولما عادت اليه قوته قال : « بما ان الموت راحة كما تقول وفرجيني سعيدة في العالم الثاني فانا اريد ان اموت لاتبعها وانضم اليها » وهكذا اثر كلامي فيه تاثيرًا منافضًا للتاثير الذي تعمدته . ذلك لان مصائب الصبي تقوي الانسان في بدء عمره وتجعله قادرًا على احتمال مصائب الحياة و بولس لم يكن قد اصيب بمصيبة في صباه

٢٠

الخاتمة

فعدتُ حينئذ ببولس الى المنزل . ولما وصلتُ اليه وجدتُ مدام دي لا تور في ضعف مستمرّ . واما رفيقتها مرغريت فانها كانت اشدّ ضعفًا منها . ذلك لان النفوس الشديد المتحمسة يصيبها الوهن والخوار بازاء المصائب الكبيرة ولئن كانت المصائب الصغيرة لا تؤثر فيها

وحين وصولي الى المنزلي اخبرتني مرغريت بانها رات في ليلها حلمًا غريبًا . قالت : انني رايت فرجيني مرتدية باثواب بيضاء وهي تتنزه في حدائق غناء . وبعد برهة دنت من بولس ضاحكة وجذبته اليها . فلما رايت ذلك هممت بان امسك بولس فشعرت بانني اسير معه ايضًا . فالتفتُ لاودع صديقتي مدام دي لا تور فرايتها تتبعنا مع الخادم دومنيك والخادمة ماري . فما قولك في هذا الحلم

وبما زاد استغرابي ان مدام دي لا تور قد رات في تلك الليلة نفسها حلمًا شبيهًا بهذا

الحلم ايضاً · فقلت لهاتين السيدتين : كثيراً ما صدقت الاحلام وكانت انذاراً للناس· ولا غرابة في ذلك فانه اذا كان الانسان الضعيف قد استطاع ايصال ارادته من اقصى الارض الى اقصاها بوسائط سرية لا يطلع احد عليها فهل يُستغرب انّ العناية التي تحكم العالم توصل الى البشر ارادتها بوسائط سرية ايضاً (١) ولماذا لا يكون الحلم احدى هذه الوسائط · بل لماذا نشك في صحة الاحلام أليست الحياة وملاذها الزائلة ومشروعاتها الفانية من قبيل الاحلام ايضاً



النوم الابدي

ومهما يكن من الامر فقد صدق وا اسفاه حلم هاتين الصديقتين· فان بولس توفي من الهم والحزن بعد انقضاء شهرين على غرق عزيزته فرجيني · وامه ماتت بعده بثمانية ايام · ثم تبعتها مدام دي لا تور والخادمان · وهكذا انقرضت هذه العائلة الفاضلة التي عاشت في الفضيلة والصلاح وماتت في الحزن والهم · كأن الفضيلة والصلاح لا جزاء لهما في هذا العالم

اما عمة فرجيني الغنية في اوربا فانها لقيت عقابها · فانها اصيبت في آخر عمرها بالجنون فسُجنت في مستشفى المجاذيب · وكانت تقول لكل صادر ووارد : ان مبادىء الرحمة والشفقة والانسانية والفضيلة والدين انما هي مبادىء وهمية يسنها الملوك ورؤساء

(١) يتكلم المؤلف هنا عن ارسال الرسائل من جانب في الارض الى جانب آخر فماذا كان يقول لو عاش في هذا الزمان ورأى التلفون والتلغراف بسلك وبلا سلك

الاديان للشعوب كبحاً لجماخهم واخضاعاً لهم

ولقد دُفن بولس في قبر عزيزته فرجيني جنباً الى جنب تحت الشجرة التي كانا يجلسان في ظلها . ودُفن حولهما امّاهما المسكينتان وخادماهما الامينان . ولم يقيموا فوق قبورهم آثاراً رخامية ولا نقشوا فوقها كتابات تدلّ على فضائلهم ومع ذلك فان ذكرهم بقي خالداً في نفوس الذين احسنوا اليهم . ذلك لان ارواحهم لا تحتاج الى الابهة والفخفخة التي كانوا يجتنبونها في حياتهم . ولكن اذا كانت ارواحهم لا تزال تهتم بما يحدث في هذا العالم فانها يلذ لها ولا شك ان تطوف الاكواخ التي تسكنها الفضيلة النشيطة لتعزي فيها الفقير الذي يشق عليه فقره وتبث في نفوس الفتيان والفتيات المتحابين حرارة الحب الطاهر والميل الى الخيرات الطبيعية وحب الجد والعمل والفرار من الغنى والثروة

فيا ايها الفتى والفتاة اللذان اتحدا في موتهما كما كانا متحدين في حياتهما . يا ايتها الامان التعيستان والعائلة العزيزة . تبكيكم هذه الاشجار التي غرستموها وكانت تظللكم . تبكيكم هذه الينابيع التي كانت تجري من اجلكم . تبكيكم هذه الآكام التي كانت مقيلاً لكم

اما هذه الارض التي كنتم تزرعونها فلم يجترىء احد على زراعتها بعدكم . وهذه الاكواخ التي كنتم تسكنونها لم يرممها احد بعد وفاتكم . اما شياتكم فقد صارت وحشية . وطيوركم تفرقت فراراً من هذه الوحشة . واشجاركم المثمرة يبست ودب الفناء اليها . ولم يعد يُسمع في هذه الاماكن الا اصوات العقبان التي تحوم حول الكوخين

اما انا صديقكم فانني اصبحت بعدكم كصديق لم يبقَ له صديق . وكابٍ فقد جميع ابنائه . وكمسافر يتيه من مكان الى مكان في هذه الارض التي بقيتُ فيها وحدي »

ولما اتى الشيخ على هذه الكلمات نهض وسار في سبيله يذرف الدموع من الم التذكار . ولقد جرت دموعي غير مرة مثله في اثناء هذه القصة المحزنة

تمت